

سلسلة الدراسات التوثيقية (36)

دور الدولة السنارية

في تشكيل هوية وبناء الشخصية السودانية

بروفيسور

حيدر محمد سليمان

الطبعة الاولى 2023م

سلسلة الدراسات التوثيقية (36)

دور الدولة السنارية
في تشكيل هوية وبناء الشخصية السودانية

بروفيسور
حيدر محمد سليمان

الطبعة الاولى 2023م

اسم الكتاب

دور الدولة السنارية
في تشكيل هوية وبناء الشخصية السودانية

اسم الكاتب

بروفيسور

حيدر محمد سليمان

الإيداع القانوني

......./2023م



الناشر

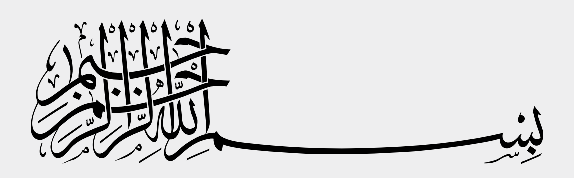
دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان

جوال: 121566207 - 00249122094856

البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:

الطبعة الأولى – 2023م



(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ
مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

(سورة النساء: ٥٩)

هذا البحث شارك به الباحث في مؤتمــر سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، جامعة سنار (قاعة المؤتمرات الكبرى) أيام 17-18/11/2017 م.

المحتويات

إهداء

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام علي من لا نبي بعده الحبيب المصطفى هادي الأمة ومخرجها من الظلمات إلى النور صل الله عليه وسلم.

وبعد:

أهدي كتابي هذا إلي:

كل (قائد مؤمن يسعى لنصرة الإسلام) إلى كل مؤمن يريد أن يحيا حياة طيبة التي وعد الله عز وجل في كتابه فقال: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مّن ذَكَر أَوْ أُنْثَىَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[1].

إلي كل مؤمنة تحب الله تعالى ورسوله الكريم صل الله عليه وسلم، وتريد أن تهتدي بهديهما وتسير علي نهجهما لتنال شرف الدنيا وكرامة الآخرة. مؤمنة محافظة على دينها تُحب أن تحشر مع أمهات المؤمنين ونساء الصحابة (رضي الله عنهم) أجمعين..

وأهديه إلى من حملوا تبعات التحول وترسيخ العقيدة الحقة ممن أرسوا قواعد الدين – في الدولة السنارية - ومكنوا له من العلماء، ورجال التصوف، و سلاطين الدولة الذين أكرموا العلماء فأجزلوا لهم العطايا و المنح، وأكرموا طلاب العلم فأوفدوهم إلى مراكز التعليم المشهورة كالأزهر في مصر و الحرمين الشريفين، لرفع الجهل، وتعليم الناس وتقوية روح التدين، حاديهم ودافعهم في ذلك إرضاء ربهم والإخلاص لأمتهم.

ولقد منَّ الله عز وجل عليَّ أن جمعت هذا الكتاب من جملة مشاركاتي في ملتقيات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية ؛ التي كانت زاخرة بالحراك الثقافي و العلمي، فقد كانت بحق ثورة علمية وتفاعل فكري ثور مخزون العقول، فحرك كوامن المعلومات فتضافرت جهود الباحثين لإخراج تلك الدرر من المعلومات التي ما كان يمكن إخراجها إلا بمثل هذا الحراك المثمر...

(١) سورة النحل - الآية ٧٩.

فـإلى أولئـك الباحثـين والباحثـات مـن المشـاركين في تلـك الملتقيـات. وإلى اللجنـة العليـاء بقيـادة أسـتاذنا الجليـل شـيخ المؤرخـين بروفيسـور يوسـف فضـل. إلى رؤسـاء الجامعـات التـي نظمـت تلـك الملتقيـات.

إلى كل المنظمـين الذيـن بذلـوا الجهـد وسـكبوا العـرق في سـبيل إنجـاح تلـك الملتقيـات ؛ فكسـبوا الرضـا وأثلجـوا الصـدور.. فلهـم التحيـة والتقديـر. و إلى جميـع العاملـين في حقـل العلـم.. إلى مـن يترقبـون فجـر الخـلاص ونهـوض الأمـة..

إلى كل فـرد مسـلم يرفـع يديـه داعيـا اللـه جـل وعـلا ؛ إلى تحكيـم شريعتـه ونهضـة أمتـه... أهـدي إليهـم هـذا الكتـاب..

وأسـال اللـه تعـالى أن يتقبلـه منـي، و أن يجعـل ثوابـه تقـاة لنـا مـن نـار جهنـم، وهـو ولي ذلـك والقـادر عليـه، والحمـد للـه رب العالمـين.

المؤلف

شكر وتقدير

الحمد لله أولاً وآخراً، لا أحصي ثناءً عليه، أحمده كما ينبغي لجلال وجهه ولعظيم سلطانه. ثم الصلاة والسلام على سيد الخلق وخاتم الرسل سيدنا محمد صل الله عليه وسلم تسليما كثيرا.

ثم شكري وامتناني لجامعة أم درمان الإسلامية ومديرها الإداري الماهر حضرة البروفيسور/ حسن عباس حسن، الذي أتاح لي هذه الفرصة العلمية العظيمة بالمشاركة في كل ملتقيات سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، كما كان مشجعا ومحفزا ومسهلا لكل مشاركاتي في الملتقيات الخارجية.

و الشكر موصول لكل القائمين على تلك الملتقيات من أساتذة وإداريين فلهم التقدير والثناء على تلك الجهود المشهودة النافعة.

وأتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة الدكتور / أحمد محمد عبد الرحمن وراق – حفظه الله – الذي كثيرا ما يقف على كتاباتي وبحوثي، و يخصني بتوجيهاته السديدة، ونصائحه الرشيدة.

والشكر كذلك لحضرة الأخ الكريم بروفيسور عمر حاج الزاكي ؛ الذي كان محفزا ومشجعا بما له من الخبرة العلمية الكافية في مجال البحوث التاريخية، فقد كان متابعا حتى انتهيت من هذا البحث على هذا النحو من الترتيب، وأرجو الله تعالى أن يديم عليه نعمة الصحة والعافية و التوفيق وأن يبارك له، وينفع به طلاب العلم.

و الشكر لأخي الصديق بروفيسور عبد القادر عميد كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية.

و الشكر أيضا لإخواني الأفاضل - وهم كثيرون - الذين دعموني وشجعوني لمواصلة البحث، والدراسة، فلهم جزيل الشكر، وعظيم الامتنان، و لا أنسى فضل أياديهم التي أثقلت كاهلي بما طوقوني به من جميل المعروف وخالص الدعاء الصالح.

والشــكر أيضــاً لمركــز بحــوث ودراســات دول حــوض البحــر الأحمــر ودار آريثيريــا للنــشر والتوزيــع – الخرطــوم – الســودان لقيمهــم بنــشر هــذا الكتــاب.

فأســال اللــه تعــالى أن يجزيهــم عــن أياديهــم وإحســانهم، فهــو ولي ذلــك والقــادر عليــه، وهــو خــير مــن يثيــب عــن المعــروف ويجــزي عــلى الإحســان.

و الشــكر الجزيــل لــكل مــن أعاننــي في تحصيــل هــذا العمــل وإنجــاز هــذه البحــث فجزاهــم اللــه عنــي خــير مــا جــزا عــن معــروف فهــو خــير مــن يثيــب العاملــين.

مقدمة

الحمد لله نحمده و نستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيرا...

وبعد..

فتهدف هذه الدراسة إلى رصد جملة من المؤثرات الثقافية والديمغرافية التي أدت إلى تشكيل الهوية الثقافية والتحول الديمغرافي للمجتمع في الدولة السنارية، وذلك لأن الحقبة السنارية تعتبر حجر الزاوية في التحول الكبير الذي شهده انسان سودان وادي النيل، كما تمثل مرحلة انتقالية بين سودان الوثنية والمسيحية، إلى سودان الإسلام و قيمه وشريعته و اللغة العربية وآدابها، وما صاحب ذلك من تحول في اللسان والعقيدة والعبادات والعادات والتقاليد والممارسات، ولا شك أن هذا التحول الكبير قد دفعت تبعاته الدولة السنارية ؛ من حروب وهجرات وثقافات وافدة وعقائد مترحلة، وحركة في المجتمع ونزوح لقبائل ودخول لقبائل لم يكن السودان موطناً لها في السابق، واختلاط أعراق ووفادة عدد من العلماء والمتصوفة إلى عاصمة الدولة السنارية.

وقد عزز ذلك الموقع الجغرافي والسياسي المتميز للسودان؛ حيث كان لذلك الموقع اثره الكبير في استقطاب مجموعات بشرية مختلفة، بما يمثله كنقطة التقاء لثقافات متعددة ومنطقة جذب سكاني لخصوبة أراضيه ووفرة مراعيه وكثرة أمطاره، والمساحات الشاسعة الصالحة للزراعة والمياه الوفيرة، والمناخات المتعددة والمتدرجة من مناخ صحراوي إلى شبه صحراوي إلى مناخات السافنا الغنية المطيرة ذات الغابات الكثيفة، وهذا التنوع المناخي المتعدد يناسب العربي الصحراوي والإفريقي الذي يفضل المناخ الممطر الغابي...

ولما كانت الدراسة تدور حول التحول والتغيير الديمغرافي للهوية والثقافة في

عهد الدولة السنارية، ولطبيعة الدراسة وما يتطلبه منهج الكتابة فيها من إحصاءات ومقابلات. إلا أن طبيعة البحث التاريخية، وأن حدوده الزمانية والمكانية تشمل حقبة تاريخية ماضية فإنه من العسير على الباحث أن يوفر للدراسة جداول إحصائية أو مقابلات أو استبيانات.

وبهذا يرى الباحث أن البحث سيكون مقاربة ومحاولة في البحث عن مصوغات للتحول الكبير الذي شهده السودان في عهد ما قبل وبعد قيام الدولة السنارية، وإن كان الباحث يرى الأثر الكبير للدولة السنارية في تحمل تبعات هذا التحول الكبير بصفتها أول حكومة منظمة تبنت الإسلام شريعة واللغة العربية تخاطباً. و بدأت في تحويل ممارسات طقسية لم تنفك من اصولها الوثنية إلى ممارسات إسلامية(٢)، وكذلك التوجه بجعل اللغة العربية هي لغة التخاطب والدين الإسلامي هو الحاكم بشريعته و بالتالي تم التحول الكامل للمجتمع نحو معتقد ولغة حكامهم.

ولا شك فإن الثقافة السنارية لا زالت تلقي بظلالها وتوسم بآثارها الممارسات والعادات في المحيط السناري الحالي، ولا زال التشكيل السوداني المتولد عن الحقبة السنارية هو الذي نعيشه في حياتنا وواقعنا المعاصر، ولما كان عمر الدولة السنارية ناهز الثلاثة قرون من الزمان، فليس من السهل أن يتم محو مؤثراته ولا مخلفاته من الذاكرة الجمعية للمواطن السوداني، حيث لا زالت بعض أنماطنا السلوكية تعود بجذورها إلى ذلك العهد وما قبله، وإن لم نلمس تلك المؤثرات السنارية في أقاليم السودان المختلفة فلابد أن نجد بقايا من الملامح والمؤثرات السنارية في محور سنار المدينة ومحيطها السكاني، ولا يمكننا أن نغفل الحضور و الإطلالة السنارية الثقافية والروحية وهي تظلل واقعنا المعاصر في كثير من العادات و الممارسات.

ويرى الباحث أن محور الدراسات والبحوث التي أجريت عن الدولة السنارية تعتبر دراسات رائدة في إطار هذا المشروع الكبير – سنار عاصمة الثقافة الإسلامية – فهناك بحوث تناولت بعض الممارسات السنارية والأدوات المستخدمة في ذلك العهد، كما تناولت جملة من البحوث الموروث التاريخي المكاني

(٢) مثل كثير من العادات التي تمارس في الأعياد و الافراح و الوفيات وكذلك ما يتم من إجراءات في عملية تنصيب السلاطين... وغيرها..

والزماني لسنار الدولة وسنار المجتمع من غير أن تحرك تلك البحوث الأبعاد السكانية، وترصد ذلك الحراك المجتمعي الذي انتظم قبائل السودان قاطبة الذي تمخض لنا عن لونية هذا الوجود السكاني وهذه الثقافة وهذه الطبيعة السودانية الخاصة في التدين.

ولما كانت الدولة السنارية تمثل علامة فارقة في الحضارة السودانية لوقوعها وسط معترك من التحولات الدينية والعقدية وما تبع ذلك من تحول في الممارسات والعادات كما ذكرنا [٣]، تبلورت من خلاله أنساق عديدة ومحاور شتى في كافة المجالات ؛ شكلت من خلاله الشخصية السودانية بمفاهيمها العقدية والسلوكية، فكان من اللازم أن نقف على هذا الموروث السناري مستفيدين منه من الناحية الأكاديمية من حيث البحث عن الأصول والجذور، و ذلك حتى نتمكن من الاستفادة من تلك المنجزات الحضارية والمجتمعية للدولة السنارية في واقعنا المعاصر في جميع النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية والعسكرية، و من جانب آخر نسقط الجانب المظلم الذي لا يخدم تطلعاتنا الثقافية والحضارية.

إن ذلك التراث الحضاري الذي خلقته لنا الدولة السنارية هو جزء من رصيدنا الحضاري و الثقافي القومي، الذي يجب أن نقف عليه حتى نتعرف على مغزاه ودلالاته وأصوله، في التأسيس لواقع جديد يعيننا على البناء والتواصل الحضاري، من خلال الاستفادة من التجارب التراكمية و الخبرات المكتسبة عبر العصور.

لقد منحتنا الدولة السنارية المكون العقدي والفقهي بل والسمات الشكلية للإنسان السوداني، وهي التي ورثتنا الدولة السودانية الحديثة بحدودها المكانية ومداها الزماني.

من دوافع الكتابة في هذا الموضوع:

١. محاولة رصد بعض أسباب التحول والتغيير في بنية المجتمع الثقافية والحضارية، نحو الإسلام واللغة العربية لدى بعض القبائل والمجموعات

(٣) هذا التحول الكبير في العادات والممارسات الموروثة إلى العادات والممارسات الرعية وفق الشريعة الإسلامية. ولا شك مثل التحول والتغيير الحاد يلقي ببعض الظلال السالبة إن لم يتم بصورة سلسة ومتدرجة.

السكانية، وجعلها دلالة على انتشار الثقافات وبسطها على نطاق واسع في الدولة السنارية مما يشئ بأن الفضاء السناري كان فضاءات رحبة.

٢. الكتابة في مثل هذه البحوث تدريب للباحث في البحث في تخصصات تختلف عن تخصصه، كما لهذا البحث ذيول و أطراف عديدة، ويشمل تخصصات مختلفة منها علم الاجتماع والأنثروبولوجي وعلم السكان (الديمغرافيا) مما يقوي قدرات الباحث ويوسع مداركه.

٣. البحث يشبع نهمة الباحث لما به من طرافة من حيث يجعل الباحث والدارس ذو نهم وحرص على تتبع كل الممارسات والعادات التي تختلف عن الممارسات والعادات الإسلامية في بعض جوانبها فيبحث أن أصولها وجذورها. ويتلمس فيها جانبا من التواصل بين المجموعات السكانية.

٤. من خلال الدراسة يمكن رصد التشابه بين أقاليم السودان والثراء الثقافي والحضاري الذي يتمتع به بلدنا الحبيب، فيجب علينا أن نرصده ونسجله ونجعله عاملاً للوحدة والتآلف، ونسخره في الجذب السياحي.

٥. التأكيد على احترام التعدد الثقافي والأعراف الحميدة مما أثبته الدستور وجعله مصدراً من مصادره.

٦. رصد منافذ الدخول للسودان وذكر من دخلوا بها و بيان أسباب الدخول للسودان والمحفزات التي حدت بمن قدم إليه.

٧. جمع وجوه وأسباب التحول الديمغرافي لسكان الدولة السنارية، وتشكيل الهوية الثقافية.

٨. رصد محفزات الوحدة والاندماج بين أفراد الشعب والقبائل التي أدت لتكوين المجتمع السناري الذي كان رصيداً حقيقياً لمجتمعنا اليوم.

٩. التأكيد على أثر اللغة العربية والدين الإسلامي في صبغ المجتمع السناري بالصبغة الإسلامية في الممارسات العامة والعادات والتقاليد، بينما كانت الممارسات الطقسية في الأفراح والاحتفالات استمرت على هيئتها القديمة حتى تم اكسابها الصفة الشرعية التي تبعدها عن الممارسات الوثنية

متأخراً بعض الشيء وظلت تواكب العادات والممارسات الإسلامية حتى تم محوها شيئاً فشيئاً.

و من الأهداف المتوخاة من البحث:

١. بيان أن الدولة السنارية تم من خلالها تشكيل المعتقد المذهبي والعقدي حيث تبنت الدولة السنارية العقيدة الأشعرية والمذهب الفقهي المالكي.

٢. إثبات أن الدولة السنارية تحملت تبعات التحول الكبير نحو الإسلام والعربية للمجتمع الذي كان يعيش ويمارس عادات وتقاليد مسيحية ووثنية، وتم التحول إلى العادات والممارسات الشرعية الإسلامية بصورة متدرجة.

٣. التأكيد على أن المجتمع في سودان وادي النيل لم يصير مجتمعا مسلما بين عشية وضحاها ولكن كان تحوله – من مجتمع وثني ومسيحي إلى مجتمع مسلم – تم بالتدرج بل وصحبت بعض العادات والممارسات الوثنية والمسيحية العادات والممارسات الإسلامية جنبا على جنب مدة من الزمان حتى تم تركها بالكلية.

٤. في الدولة السنارية عرف السودان التواصل المنهجي المنظم والهجرات العلمية المؤسسة للعلماء بين السودان والخارج حيث عرف المواطن السناري جملة من الثقافات والممارسات الجديدة الوافدة من مصر والحجاز والمغرب العربي الكبير.

٥. التأكيد على اعتبار أن الدولة السنارية هي الدولة التي تبلورت في وجودها الشخصية السودانية بسحنتها وقيمها من خلال التمازج الذي تم بين مكوناتها القبلية والعشائرية لما تم فيها من تواصل واختلاط.

٦. إن قيام الدولة السنارية (السلطنة الزرقاء أو سلطنة الفونج) نقطة تحول مهمة في تحديد وتوحيد رقعة الدولة السودانية الحديثة ن من الناحية المكانية والجغرافية.

٧. تجلية دور المتصوفة والعلماء وتوضيح إسهامهم الفكري والثقافي في ربط

لحمة المجتمع السناري، واستفادتهم من استخدام الموروث المحلي في الدعوة واكتساب الأتباع وكان لهم الأثر الكبير في أسلمة المجتمع وعربيته.

٨. بيان أن التواصل و الاستخلاف والتعاقب بين الأمم والممالك من السنن الكونية المستمرة التي يجب علينا أن نستفيد منها، فنقف على أسباب الانهيار فنتجنبها كما نستفيد من أسباب ومظاهر القوة فنترسمها. والأمم تمرض وتموت ولها أسباب انهيار وشيخوخة وهرم كما للإنسان، وقد مرت الدولة السنارية بهذه الأطوار حتى كانت نهايتها على الغزو التركي المصري سنة ١٨٢١م.

منهج الدراسة:

لما كانت الدراسة تغطي مدى زمنيا متسعا، وتشمل الدراسة جوانبا اجتماعية و انثروبولوجية وتاريخية من الطبيعي أن تستوعب جملة من المناهج البحثية المتنوعة ؛ و لهذا اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي والوصفي وتحليلي والاستقرائي والاستنباطي.

الدراسات السابقة:

كثيرون الذين كتبوا عن الدولة السنارية، وكذلك الذين كتبوا عن هجرات العرب وتغريبات القبائل ومن كتبوا عن الأنساب، و كذلك الذين بحثوا في الأصول السكانية والآثاريين وغيرهم، وقلما تجد ممن كان لهم اهتمام بالتاريخ من أهل السودان وغيرهم تجاوزوا الدولة السنارية و الكتابة عنها.

ولعل أهم ما يمكن الاستفادة منه في الكتابة عن الدولة السنارية _ كما فعل الباحث _ هو ما قدم في مؤتمرات موسم سنار عاصمة الثقافة الإسلامية، التي تم توزيعها بين الجامعات السودانية وشكلت زخما علميا وتاريخيا بحثيا، توفر له عدد من الباحثين تنوعت بحوثهم ودراساتهم لتغطي محاورا متعددة، وفق عناوين وشعارات تلك الملتقيات التي كانت بحق تشهد نشاطا وتداولا فكريا مفيدا، عالج الكثير من الإشكالات المجتمعية التي نعاني منها.

ومما يحزنني الآن وأنا أكتب واراجع مسودة هذا الكتاب أن أعيش مأساة الحرب الدامية الغير مبررة التي يدور رحاها في الخرطوم ومناطق كردفان

ومدائـن دار فـور مـن يـوم ١٥ ابريـل ٢٠٢٣م الى هـذه السـاعة وانـا ألان بسـلطنة عمـان في اليـوم الخامـس مـن شـهر نوفمـبر ٢٠٢٣م. إنـه شيء مؤسـف. ورعونـه وأخطـاء لا يقـع فيهـا مـن عـرف أوليـات السياسـة أو أبجديـات العسـكرية، إنهـا ليسـت حـرب الحـرب التـي نعرفهـا بـين الجيـوش ولكنهـا حـرب اسـتهدفت المواطـن طـردت الأهـالي مـن منازلهـم واسـتوطنوها و تـم نهـب الممتلـكات ومتعلقـات الأسر و المتحـركات مـن العربـات وغيرهـا وسرقـوا مقتنيـات النسـاء مـن الذهـب و الحـلي والمجوهـرات، بـل حتـي الأثـاث مـن الفـرش و الملايـا و الكـراسي و السرايـر.

وقـد طـال بيتـي مـا طـال بقيـة البيـوت، فقـد سرقـت شاشـات التلفزيـون و الثلاجـات وغيرهـا ممـا حوتـه الدواليـب... وحسـبنا اللـه ونعـم الوكيـل.

المبحث الأول

مفهوم الهوية و التحول

المبحث الأول

مفهوم الهوية و التحول

تعريف الهوية:

جاء تعريف الهوية في المعجم الوسيط " بأنها حقيقة الشيء أو الشخص " هنالك تعريف آخر من منظور التصوف بأنها " الغيب الذي لا يصح شهوده للغير كغيب الهوية المميز عن كنهها وهو أبطن البواطن " وهي في تعريف آخر، الحقيقة المطلق المشتمل على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق " [٤].

ونجد أن أقرب مفردة إلى كلمة هوية من الناحية الصوتية الهاوية، وتعني البئر البعيد المهواة، عرفت من معجم الأنتريولوجيا بأنها أحد أشكال العادة / أو نمط حياة ومنظومة قيم أو مرجعية ذات شفرة أخلاقية.

في معظم معاجم مصطلحات الثقافة عُرفت مصطلح الهوية بأنها خيال يطفئ نموذجاً منتظماً على الصعيد الفعلي والطبيعي لكل من العوالم النفسية والاجتماعية، ويركز مفهومها على تأكيد مبدأ الوحدة والاستمرار وهي تمثل للجامعة والافراد تعبيراً جوهرياً أو خصائص ذاتية طبيعية تصدر عن التطابق مع بعض الذات أو الفرد أو الكيان الجمعي المكتفي.

تعبر بعض المفاهيم السياسية عن الهوية بأنها كل ما يعبر عن تفرد المجموعات وما يمنعهم من الصراع الفكري او العلمي ويسمح ببقاء الحدود التي تفصل بين الجماعة، وعلى العموم هي حالة أساس جمعي يرتكز على مبدأ الوحدة ويشكل مفهوم العائلة القومية والجسد الواحد والدم المشترك والوطن الجماعي والإحساس بوحدة العقيدة والثقافة وتواصل التاريخ والأجيال والقوة الأخلاقية للتراث [٥].

---

(٤) د. يوسف فضل، طبقات ود ضيف الله، ص٧٦.

(٥) الهوية الثقافية الشبكة العنكبوتية ص٢، ١ – طوبى بيني وآخرون " سعيد الغانمي – مفاتيح اصطلاحية جديدة – المنظمة العربية للترجمة ط١ لبنان – ٢٠١٠م ص٢٠٧–٢٠٧.

مفهوم الهوية برز في أدبيات الحركة السياسية والثقافية في السودان منذ عهود ما بعد الاستقلال وهو يستند على عناصر عدة منها العرق، الدين، اللغة، الثقافة. ويكون التجانس بين هذه العناصر في الثقافات المختلفة هو محدد الهوية في إطار الأرض " الحيز الجغرافي ". [٦]

بالرغم من أهمية العرق والتي ركز عليها الكثير من الباحثين إلا إنها لا تعد العامل الجوهري في تحديد الهوية فعلى امتداد العالم لا نجد سوى اثنتي عشر دولة فقط ممن تنطبق عليهم وحدة العرق.

عند الحديث عن الهوية فإن الإنسان يجد نفسه يتجاذب اليوم بين عالمين لكل منهما مركزي استقطاب:

الأول: هو العالم الأساسي بأصولياته الدينية وعلومه الشرعية.

الثاني: فهو العالم الحديث بفلسفاته العلمانية و روياته العقلانية وعبر هذين العالمين يتجاذب الوعي بالهوية.

متطلبات تشكيل الهوية:

وما يعين على تشكيل الهوية الجماعية البراعة الإدارية في تكوين ظل سياسي واجتماعي متسق، كما تساعد نظرة الجماعة لنفسها على تحديد ملامح هويتها فالجماعات السودانية يخلص الناس عبرها إلى تعريف أنفسهم كمواطنين في مجتمع سياسي مشترك تتجاوز هوياتهم الخاصة نحو مقومات جديدة تسمو على العصبية وقد ظهر مثل هذا المفهوم إيان عقد سلطنة الفونج، كما سيتضح لنا.

إن ما نعرفه اليوم عن الهوية يختلف عما كان عليه قبل قرنين من الزمان، فمفهوم الهوية السائد اليوم يرجع غلى ظهور وسيادة القوميات والدولة القومية في أوروبا في القرن الثامن عشرة الميلادي. فالشخص الآن ترتبط هويته بكيانه السياسي إي بحدود الدولة السياسية التي يعيش داخلها بغض النظر عن عرقه أو لغته أو دينه.

(٦) د. يوسف فضل حسن، التماذج العرقي والثقافي ودوره في بناء الدولة السنارية، سلطنة الفونج نموذج ص٢.

إذا رجعنا إلى التاريخ بإيجاز نجد مثلاً أن المصريين والغينيين وإلى اليونانيين والصينيين والهنود، شعوب جمعت بينها بعض الروابط مثل المكان والعرق واللغة والدين والتراث وكان الإحساس والرابط هو الأقوى بين كل واحد من تلك الشعوب، ويرى كل شعب أنه متميز بذاته إلى جانب الشعوب أو الجماعات الأخرى ولكن في حقيقة الآمر إن الشعور القومي هو العامل الذي ربط كل من تلك الشعوب مع بعضها البعض. (٧)

شكلت الهجرات الكبرى القديمة كثيراً من شعوب العالم القديم ارتبط منها الشعب المهاجر في مواطن استقرار بسمات مشتركة خلقت تلك السمات الإحساس بالتقارب والانتماء بين أفراده، من جانب آخر حمل الشعب المهاجر سماته إلى مناطق استقرار فغيرت الجماعات حدودها القديم إلى حدود جديدة ولم يعد لتلك الجماعات ارتباط بأوطانها الأم رغم بقاء السمات المشترك لعدة أجيال.

الهوية والمواطنة في التراث الإسلامي:

ارتبطت الهوية في الإسلام بالقبيلة فالفرد ينتمي إلى القبيلة، لم يكن هنالك كيان سياسي واحد يضم الأفراد فالقبيلة مثلاً كانت محور الحياة في شبه الجزيرة حيث يتمتع المنتمي غلى القبيلة بالأمن والحقوق المتعلقة بالجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

الانتماء إلى القبيلة ليس من الضروري ان يكون عبر صلة الدم فالقبيلة بصورة عامة تنتمي إلى جد واحد يرجع إليه نسب أفرادها ولكن لم تكن رابطة الدم شرطاً في الانتماء إلى القبيلة فقد تضم القبيلة شخصاً لا صله له بها ويعرف هذا بنظام الولاء ويتمتع الفرد فيه بكافة الحقوق التي يتمتع بها من ينتمون بصلة الدم في القبيلة.

تعرضت كل من المنطقتين والأفريقية إلى التقلبات المناخية التي حدثت منذ اثنتي عشرة ألف سنة مضت، وهو التغير الذي أدى في نهايته إلى تكوين كلاً من الصحراء الكبرى الأفريقية وصحراء شبه الجزيرة العربية بدأ لك التغيير

(٧) د. أحمد إلياس حسن، السودان الوعي بالذات وتأصيل الهوية (الجزء الثاني)، دار النشر المكتبة الوطنية، السودان، الخرطوم، ٢١٠٢م، ص٧١.

يؤثر بصورة محسوسة منذ نحو سبعة آلاف سنة مضت وهو الوقت الذي بدأت فيه تحركات السكان في الصحراء الأفريقية الكبرى إلى الشمال أي نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط وإلى الشرق نحو وادي النيل وإلى الجنوب نحو حوضي نهر النيجر والسنقال، وقد أعقب تلك التحركات تطور ثقافات تلك المناطق والتي أدت إلى قيام حضارات وادي النيل وشمال وغرب أفريقيا.

من جانب آخر ترجع السلالة العربية في أصولها إلى السلالة السامية وهي تعتبر السلالة السامية الوحيدة التي ارتبطت بترك آثارها العرقية واللغوية على وادي النيل وخصوصاً السودان. ترجع أصول كلمة عرب إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد وهي تعني البدو، وجاءت في لغات سامية أخرى بمعنى " البداوي والإعرابية والجفاف والفقر " أي تعني البداوة وحياة البادية. (٨)

كلمة عرب تعني في مدلولها البداوة وسكان البادية، اما سكان الحضر في شبه الجزيرة العربية فقد كانوا يعرفون بأسماء المناطق التي يعيشون فيها مثل " سبأ وغمدان وحمير ".

حدث تغيير كبير لمفهوم المواطنة بعد ظهور الإسلام فبقيام دولة المدينة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، توحدت الانتماءات العرقية والقبلية القديمة في شبه الجزيرة العربية في هوية جديدة وهي الانتماء إلى الأمة بغض النظر عن العرق او اللغة او الدين، فسكان المدينة من عرب ويهود وغيرهم من فرس وروم واحباش مسلمين وغير مسلمين اصبحوا جميعاً مواطنين في دولة المدينة، فالمواطنة أصبحت حق يتمتع بها كل مواطن وقد ورد ذلك وفقاً لنصوص وثيقة المدينة.

وضعت وثيقة المدينة أو دستور المدينة أسس الدولة التي تأسست بالمدينة مباشرة عقب وصول الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أطلقت الوثيقة على سكان دولة المدينة اسم الأمة، كما أوضحت الوثيقة أن سكان المدينة هم نواة الأمة وقد عالجت نصوص الوثيقة أوضاع المواطنين " أفراد الأمة " في الدولة ولم تميز بين عرق وآخر فالكل ينتسب إلى الأمة وأصبح الانتماء الأول لكل

---

(٨) بروفيسور: أحمد إلياس ياسين، السودان الوعي بالذات وتأصيل الهوية – الجزء الأول، الخرطوم السودان – المكتبة الوطنية ٢١٠٢م ص٩١.

المواطنين للأمة لأن مجتمع الأمة مجتمع عالمي انتظم أجناساً وديانات ولغات وثقافات متعددة فقد اعترف بالانتماءات المحلية والعرقية والقبلية بلغتها بل جعلها تعريفاً وهوية تابعه للانتماء للأمة.

لعل هنالك بعض التغيرات التي حدثت في تاريخ الدولة الإسلامية بعد القرن الثالث عشر الميلادي ويرجع ذلك للتغير في الأوضاع السياسية وظهرت العديد من الدول الإسلامية في الشرق و الغرب إلا أن أوضاع الأمة والمواطنين التابعين لتلك الدول لم تتغير بل حدث تمدد لمفهوم الأمة والمواطنة ليشمل افراد ما وراء الحدود وكان انتماء المواطن من مصر ومن الأندلس والعراق وإيران والهند وعمان للأمة وهذا ما أشار إليه كل من خليل بن أحمد والزبير. [٩]

كما صبغت الجماعات الوافدة أماكن إقامتها الجديدة بسماتها وانصهرت فيها بالعناصر المحلية، وبمرور الزمن تفرعت تلك الشعوب وتطورت سمات جديدة أدت إلى خلق كيانات جديدة وهكذا.

فالروابط القديمة أو القوميات والهويات القديمة لم تحكمها قواعد أو قوانين أو مفاهيم عامة اشتركت فيها تلك الشعوب بل خضعت للمفاهيم والقواعد المحلية التي ارتضتها تلك الشعوب لنفسها ولذلك لم يكن ضرورياً ارتباط القوميات والهويات بالحدود السياسية كما هو عليه الحال الآن.

هوية الشيء هي ثوابته التي لا تتجدد ولا تتغير فهي كالشفرة التي يعرف الفرد من خلالها مدى علاقته بالجماعة التي ينتمي إليها ومدى علاقة الجماعة به، حيث يحظى الأفراد بهويات مختلفة ومتعددة بعضها اختياري كالعقيدة وبعضها مفروض كالسلالة او الجنس. وعند المقارنة مع بعض الأمثلة ففي بريطانيا مثلاً تعيش الآن مجموعات سكانية متباينة لغة وعرقاً وديناً وكلها تنتمي إلى هوية واحدة، وفي سويسرا تقيم ثلاث مجموعات سكانية يتحدث أفرادها اللغات الألمانية والإيطالية والفرنسية ويتمتعون بهوية واحدة لماذا ؟ لأن الشعوب هنالك هي التي اختارت حدودها السياسية بخلاف اغلب الشعوب الأخرى.

---

(٩) د. أحمد إلياس حسين، مرجع سابق، ص٥٢.

نجد أيضاً في بعض المناطق الاخرى من اوروبا الغربية تتضمن القوميات سكاناً ينتمون إلى عرق واحد ويدينون بدين واحد ويتحدثون نفس اللغة ويتمتعون بهوية واحدة ومثل هذه النماذج متعددة في أوروبا.

المؤثِّر الثقافي في تغيير الهوية والسكان:

من الضروري لمناقشة المؤثِّر الثقافي في السودان، وما يتعلق به من أطروحات، أن نبدأ بتفكيك عناصره وتناولها على حدة، وهي تقريباً: " الدين، اللغة، المؤثرات الحضارية، العادات والتقاليد ".

ا / الدين:

بقيام الدعوة الإسلامية وتوطيدها في شبه الجزيرة العربية وبداية انتشارها وسيطرتها على مصر في شمال وادي النيل بحملة مرو بن العاص رضي الله عنه، لم تنقطع العلاقات والصلات العربية بالسودان بل زادت بفضل قوة الدعوة الإسلامية وأصبح هناك طريقان [١٠] او مدخلان نفذا منهما العرب والدعوة الإسلامية من شبه الجزيرة العربية إلى السودان وهما: المدخل الشرقي عبر البحر الأحمر مباشرة. والمدخل الشمالي عبر مصر، وان كان هناك ترابط كبير بين المدخلين، في تطوير أبعاد تلك العلاقات، واستمرار هذا الاتصال.

في السودان القديم كانت تسود الوثنية جميع أجزائه بأديانها المختلفة ومعبوداتها المتعددة، كالمعبودات الفرعونية في ممالك النوبة آمون وإيزيس وحورس، أو مثل المعبودات المحلية كأبادماك إله الحرب والنصر عند المرويين وسيبومكر، وأرينوسنوفس، أو المعبودات المأخوذة من الطبيعة مثل الأفعى والأشجار، أو مثل عبادة الطوطميات في الجنوب.

وفي منتصف القرن الرابع الميلادي دخلت النصرانية إلى السودان عن طريق الإرساليات البيزنطية، وما لبثت أن صارت هي الدين الرسمي لممالك النوبة الثلاث: «نوباطيا، المقرة وعلوة»، وانتشرت الكنائس فيها، وإن كان هناك من يرجح أنها لم تكن ديناً شعبياً، بل كانت دين النخبة؛ بينما ظل عامة الشعب على معبوداتهم الوثنية.

(١٠) / بجانب هذين الطريقين او المدخلين هناك طريق ثالث دخلت منه الثقافة الإسلامية غلى السودان أيضاً ولكنه متأخر نوعاً ما هو الطريق الشمالي الغربي والذي ظهر عقب ارتداد المسلمين بعد طردهم من الأندلس في القرن الخامس عشر الميلادي.

أما الشعوب التي كانت تقطن شرق النيل، وإلى الجنوب الغربي، فقد ظلت متمسكة بمعتقداتها القديمة .

وفي القرن السابع الميلادي والأول الهجري ٣١ هـ/ ٦٥١ ـ ٦٥٢م توغلت الجيوش الإسلامية في بلاد النوبة وحاصرت دنقلا عاصمة المقرة، ولأن غرض المسلمين لم يكن الفتح، بل وضع حد لهجمات النوبة على الحدود المصرية؛ فقد انتهت هذه المرحلة بإبرام ما عُرف بـ (اتفاقية البقط)، لكنها كفلت حق التوغل السلمي والتبادل التجاري للجانبين ـ مجتازين غير مقيمين، وهو الأمر الذي كان له أكبر الأثر في نشر العقيدة الإسلامية عن طريق التجار المسلمين.

كما تم عقد اتفاقات مماثلة مع البجة في القرن الثامن الميلادي، مكَّنت من فتح الموانئ السودانية مثل عيزاب وسواكن لنقل الحجيج، التجار القادمين من مصر، وهكذا تسربت المؤثرات الإسلامية تدريجياً حتى جاء القرن الثالث عشر الميلادي، وبدأت القبائل العربية تتدفق بأعداد كبيرة إلى السودان، وتداخلت مع السكان المحليين من النوبة والبجة، وفي منتصف القرن الرابع عشر سقطت مملكة النوبة المسيحية على يد بني عكرمة ـ إحدى بطون جهينة ـ وزال الكيان المسيحي الذي كان يصد توغل العرب، فاندفعوا بأعداد كبيرة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلى مملكة «علوة» آخر معاقل النوبة المسيحيين، وغلبوها على أمرها، وتمكنوا من إزالتها من الوجود في منتصف القرن الخامس عشر على الأرجح؛ حيث انقضَّت جموع هائلة من القبائل العربية بقيادة عبد الله القرنياتي المعروف بـ «جماع» على سوبا وقضوا على ملكها، وهكذا انهزمت المسيحية تماماً في السودان، ولكنها عادت مرة أخرى على يد المبشرين الاستعماريين خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وأفسح لها الاستعمار الإنجليزي المجال للعمل منفردة في المناطق التي يضعف فيها الأثر الإسلامي مثل الجنوب وجبال النوبة، حتى صارت دين النخبة السياسية والمثقفين في تلك المناطق.

وفي بداية القرن السادس عر جاءت قوة مسلمة وافدة من أعالي النيل الأزرق، وقامت بالإطاحة بحكم العربان وأقامت دولة إسلامية كان لها أكبر الاثر في نشر الثقافة الإسلامية ودحر الوثنية، وهي دولة الفونج التي تمددت شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً [١١].

---

(١١) المصدر السابق.

وفي غـرب السـودان قامـت بعـض الكيانـات السياسـية الإسـلامية مثـل المسـبعات التـي اندمجـت بالقـوة تحـت سـلطان الفونـج، ومثـل الفـور التـي ظلـت كيانـاً سياسـياً قائمـاً بذاتـه حتـى العهـد التركـي.

لقـد اسـتطاع الإسـلام دينـاً وثقافـة أن ينفـرد تمامـاً في كل السـودان الشـمالي وجـزء كبـير مـن الجنوبـي، ومثـل جبـال النوبـة والأنقسـنا.

٢ / اللغة:

ممـا لا شـك فيـه أن الصـلات بـين أفريقيـة عامـة والسـودان خاصـة وشـبه الجزيـرة العربيـة، عميقـة الجـذور، موغلـة في القـدم، فقـد كانـت شـبه جزيـرة العـرب – عـلى مـر العصـور – مسـتودعاً بشريـاً عظيمـاً، ومنبعـاً لموجـات بشريـة تتدافـع في تيـارات متتاليـة عـلى مـدي العصـور والأجيـال نحـو الأقطـار المجـاورة، وكانـت أهـم هـذه الموجـات وأسـبقها في الزمـان بحكـم الجـوار وسـهولة الانتقـال تلـك الموجـات المتجهـة نحـو شرق القـارة الإفريقيـة عـن طريـق بـاب المنـدب ثـم عـبر طـرق البحـر الأحمـر كلهـا [١٢]. ممـا جعـل للغـة العربيـة وجـود سـابق قبـل الفتـح الإسـلامي ببـلاد سـودان حـوض النيـل.

وللغـة أثـر كبـير في شـخصية الثقافـة ؛ حتـى إن بعضهـم يصنـف الثقافـة عـلى أساسـها، وفي السـودان عـدد كبـير مـن اللهجـات واللغـات مثـل اللغـة النوبيـة أصـل اللهجـات " الدناقلـة والسـكوت والمحسـن... إلـخ، ومثـل اللغـة التبداويـة اصـل لهجـات البجـة ؛ إضافـة إلى لهجـات القبائـل الإفريقيـة في الغـرب مثـل الفـور والزغـاوة والمسـاليت. أو لهجـات القبائـل النيليـة مـن شـلك ودينـكا ونويـر.. إلـخ، ولكـن العربيـة ظلـت – في مسـتوياتها المختلفـة – هـي لغـة التخاطـب في السـودان، والقاسـم المشـترك بـين كل القبائـل والثقافـات، ولغـة الشـعائر الدينيـة، ولغـة المعامـلات التجاريـة والرسـمية، وإن حـاول المسـتعمر أن يغـرس الإنجليزيـة بديـلاً لهـا في الجنـوب [١٣].

وممـا يزيـد مـن عمـق هـذه الصـلات ان هنـاك بعـض النظريـات التـي تتحـدث عـن

(١٢) محمـد محمـد امـين: العلاقـات العربيـة الأفريقيـة (دراسـة تحليليـة في أبعادهـا المختلفـة) معهـد البحـوث والدراسـات العربيـة، القاهـرة ٨٧٩١م، ص١٣.

(١٣) للتوسـع راجـع أحمـد محمـد عـلي الحاكـم، هويـة السـودان الثقافيـة، ص١٦ – ٣٧، أمـل عمـر ابـو زيـد، الملامـح العامـة لتاريـخ السـودان القديـم.

غياب البحر الاحمر (كحاجز مائي) كله بين آسيا وافريقيا وتقول بوحدة " أصل البجة " [١٤] وقدماء المصريين النابع من الجزيرة العربية [١٥]. وبالإضافة إلى أن البحر الأحمر لم يكن حاجزاً صعباً يمنع الاتصال بين شواطئه الأسيوية العربية، وشواطئه الأفريقية، فلم يكن من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة، ومن المؤكد ان بلاد البجة في شرق السودان هاجر إليها الحضارمة قبل الإسلام [١٦]. وكان بفضل هذه الصلات والتي تمثلت في انتقال العرب من شبه الجزيرة العربية إلى مناطق كثيرة في أفريقيا ولعل اهمها منطقة وادي النيل، ان تزايدت المؤثرات العربية وأصبحت تلك المناطق الأفريقية شبه عربية، وقطعت في عروبتها شوطاً طويلاً عبر آلاف السنين وذلك عندما ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي [١٧].

وقد دفعت هذه الصلات والهجرات العربية ببعض الباحثين [١٨] في تاريخ السودان إلى الترجيح بأن سودان وادي النيل قد عرف الثقافة العربية الجاهلية بكل مقوماتها العقائدية والفكرية قبل أن يعرف الثقافة الإسلامية التي صاحبت الدعوة الإسلامية، وأن تأثيرات الدماء العربية والثقافة أيضاً لم يكن مقصوراً على الجهات التي تقابل الجزيرة العربية في السودان الشرقي بل تجاوزها إلى السودان الأوسط، والسودان الغربي أيضاً.

صراع الهوية الحالي في السودان:

برز التكوين الحالي لدولة السودان (سودان وادي النيل)، بحدودها الحالية في العهد السناري، وكان معترفاً بها حتى لدى الاستعماريين الأوربيين أنفسهم، وقد عرف سودان وادي النيل منذ القدم كمستودع للبشر ومخزن

---

(١٤) البجة أو البيجة او البجاه هم سكان شرق السودان ويقال أنهم من اقدم الشعوب في افريقيا بعد السود، وهم ينقسمون إلى أربعة أقسام رئيسية في الصحراء الشرقية للسودان ما بين النيل والبحر الأحمر (البشاريون والأمراء، والهدندوة، وبني عامر). انظر: نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته، طبعة أولى القاهرة سنة ٣٠٩١م، ج١ (من ص٩٤ إلى ص٦٥) وايضاً يوسف أبو قرون: قبائل السودان الكبرى، الخرطوم ٩٦٩١م من ص٩٥ إلى ص٤٧.

(١٥) عبد العزيز حسين الصاوي، محمد علي جادين: الثورة المهدية مشروع رؤية جديدة، الخرطوم بدون تاريخ ص٠١. عبد القادر محمود: الفكر الصوفي في السودان مصادره وتياراته وألوانه، القاهرة ٩٦٩١م، ص١٤، محمد عوض محمد: السودان الشمالي سكانه وقبائله، القاهرة ١٥٩١م، ص٩٥١.

(١٦) عبد الرحمن حسب الله الحاج: العلاقات بين بلاد العرب، وشرق السودان منذ ظهور الإسلام حتى ظهور الفونج (رسالة ماجستير منشورة) بجامعة القاهرة سنة ٠٨٩١م، ص٠٧.، وايضاً محمد محمد امين: المرجع السابق، ص٨٥.

(١٧) محمد محمد أمين: نفس المرجع ص١٣.

(١٨) انظر: عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها غلى العصر الحديث، القاهرة سنة ٧٦٩١م ص٠١.

للذهـب، وبالرغـم عـن أن المصلحـة الأوربيـة اقتضـت تأكيـد التمايـز الثقـافي بـين الجنـوب والشـمال عـلى وجـه الخصـوص، فابتدعـوا سياسـات للفصـل العرقـي والثقـافي مثـل قوانـين المناطـق المقفولـة، وقامـوا بإعـلاء شـأن الزنجيـة والنصرانيـة ضـد الوجـود العربـي المسـلم، وفي وقـت لاحـق تطـور الأمـر إلى صراع انفصالي مسـلح ألقـى بظلالـه عـلى الاطروحـة الثقافيـة للمفكريـن السياسـيين السـودانيين، فظهـرت لأول مـرة اتجاهـات جديـدة فيمـا يتعلـق بالهويـة، بـدا الخـلاف أكاديميـاً في أول الأمـر، وتبلـور في ثلاثـة أطروحـات:

أ – أطروحـة تؤكـد أن الهويـة الثقافيـة للسـودان هـي امتـداد طبيعـي للثقافـة الإسـلامية والعربيـة، حسـب المعطيـات المتوافـرة مـن ديـن غالـب ولغـة غالبـة وعـادات، وعـلى الرغـم مـن وجـود الثقافـات الأخـرى فإنهـا ثقافـات أقليـة.

ب – أطروحـة تدعـو إلى تعظيـم دور النمـط المحـلي في تكويـن الثقافـة السـودانية بقدر كافـئ للإسـلام، وتعتـبر الهويـة السـودانية ثنائيـة المصـدر " افـرو عربيـة "، ولكـن هـذه الأطروحـة تمتـد احيانـاً لتغليـب الهويـة الإفريقيـة مطلقـاً[١٩].

ج – أطروحـة تدعـو إلى حجـر هيمنـة الثقافـة العربيـة والإسـلامية، وتتـبر أن الثقافـة السـودانية متعـددة المصـادر، اعتمـاداً عـلى تعـدد اللغـات واللهجـات " زنجيـة – عربيـة – نوبيـة تبداويـة... إلـخ "[٢٠].

(١٩) كتب البحث بعد انفصال الجنوب، وبعد زوال حكومة المشير عمر البشير ارتفعت هذه النغمة وصارت من المطالب المتبناة من مجموعة قحت العلمانية.

(٢٠) أحمد محمد علي الحاكم، هوية السودان الثقافية، ص٨، ٧.

المبحث الثاني

الفتح الإسلامي للسودان

المبحث الثاني

الفتح الإسلامي للسودان

في القرن السابع الميلادي والأول الهجري ٣١هـ / ٦٥١ – ٦٥٢م توغلت الجيوش الإسلامية في بلاد النوبة وحاصرت دنقلا عاصمة المقرة، وانتهت الحرب بإبرام اتفاقية عرفت (باتفاقية البقط)[٢١]، التي كفلت حق التوغل السلمي والتبادل التجاري للجانبين – مجتازين غير مقيمين ن وهو الأمر الذي كان له أكبر الأثر في نشر العقيدة الإسلامية عن طريق التجار المسلمين.

كما تم عقد اتفاقات مماثلة مع البجة في القرن الثامن الميلادي، مكّنت من فتح الموانئ السودانية مثل عيزاب وسواكن لنقل الحجيج، التجار القادمين من مصر، وهكذا تسربت المؤثرات الإسلامية تدريجياً حتى جاء القرن الثالث عشر الميلادي، وبدأت القبائل العربية تتدفق بأعداد كبيرة إلى السودان، وتداخلت مع السكان المحليين من النوبة والبجة، وفي منتصف القرن الرابع عشر سقطت مملكة النوبة المسيحية على يد بني عكرمة – إحدى بطون جهينة – وزال الكيان المسيحي الذي كان يصد توغل العرب، فاندفعوا بأعداد كبيرة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلى مملكة " علوة " آخر معاقل النوبة المسيحيين، وغلبوها على أمرها، وتمكنوا من إزالتها من الوجود في منتصف القرن الخامس عشر على الأرجح ؛ حيث انقضَّت جموع هائلة من القبائل العربية بقيادة عبد الله القريناتي المعروف بـ" جماع " على سوبا وقضوا على ملكها، وهكذا انهزمت المسيحية تماماً في السودان، ولكنها عادت مرة أخرى على يد المبشرين الاستعماريين خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وأفسح لها الاستعمار الإنجليزي المجال للعمل منفردة في المناطق التي يضعف فيها الأثر الإسلامي مثل الجنوب وجبال النوبة، حتى صارت دين النخبة السياسية والمثقفين في تلك المناطق.

---

(٢١) كلمة البقط تعني القسمة بلغة الدناقلة.

و بعد فتح عمرو بن العاص مصر أرسل عبد الله بن سعد بن أبي السرح إلى بلاد النوبة جنوبيًا. وبدأ نزوح القبائل العربية إلى السودان. وهاجر إليها أكثر من ألفي أموي بعد قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م [٢٢].

ونعني بالسودان في ذلك الوقت و الوقت الحاضر الرقعة التي تقع جنوب مصر في الجزء الأوسط من حوض النيل ؛ أي ما يعرف بسودان وادي النيل، ويحتل ما يقارب مليون ميل مربع [٢٣]، ويحد شمالًا بمصر وليبيا، وجنوباً بأوغندا والكونغو، وغرباً بتشاد وأفريقيا الوسطى، وشرقاً بإثيوبيا و ارتريا والبحر الأحمر، وقديماً أطلق الغرب اسم " بلاد السودان " على الجزء في القارة الإفريقية الذي يقع جنوب الصحراء الكبرى ن ويمتد من المحيط الأطلسي غرباً حتى تقع وراء حدودهم الجنوبية عدة أسماء مثل " تا – نحسيو " أي أرض السود، " تا – رستي " أي أرض القسي / وأسماها الآشوريون " كوش "، وأطلق عليها اليونانيون " إثيوبيا " أي سمر الوجوه [٢٤]. وهذا ما يمكن صفته بحدود البحث في هذه الدراسة.

الاتحاد السناري:

دوافع تحالف الفونج و العبدلاب:

اختلفت الكتابات حول طبيعة ودوافع الحلف الفونجي العبدلابي، وسوف نورد أمثلة لوجهات نظر مختلفة منها:

١/ يرى يوسف فضل أن المؤرخين حتى عهد قريب اجمعوا على أن سقوط مملكة علوة المسيحية تم نتيجة لاتفاق ثنائي بين الفونج والعبدلاب، ومن ثم تكونت مملكة الفونج على الجزء الشمالي من السودان الشرقي (سودان وادي النيل) من سنة ١٥٠٤م حتى ١٨٢١م، إلا أن دراسات حديثة خرج بها البروفيسور هولت ترجح أن القبائل العربية بقيادة عبد الله جماع هي التي اسقطت سوبا عاصمة علوة، وبعد ذلك تمكن الفونج من هزيمة العبدلاب في أربجي سنة ١٥٠٤م، وبالتالي سيطروا على مملكة الفونج [٢٥].

(٢٢) موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ٧١٤١ هـ/ ٦٩ - ٧٩ م، أحمد معمور العسيري، الناشر: غير معروف (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض) الطبعة: الأولى، ٧١٤١ هـ - ٦٩٩١ م، ص: ٨٧٤.

(٢٣) هذا إذا اعتبرنا دولة جنوب السودان ضمن مساحة السودان الكبير (أي قبل الإنفصال٩.

(٢٤) نجم الدين محمد شريف، السودان القديم وآثاره، دار جامعة الخرطوم، مايو ١٧٩١م.

(٢٥) هذا هو المعلوم في المقررات الدراسية عن نشوء دولة الفونج.

وحول خصائص هذا الحلف يرى د. يوسف فضل أنه حلف أدى إلى اقامة صرح سياسي جديد، وهو يمثل في قمته نوعاً من الحكم الذي يعطي للفونج الكلمة الأولى في إدارة البلاد كما يمثل نوعاً من التحالف الفضفاض بين زعامات أو مشيخات قبلية متعددة بينها وبين العبدلاب من جهة و الفونج من جهة أخرى، وكانت مملكة الفونج أبعد ما تكون عن الحكومة المركزية، فليست هناك مؤسسات إدارية متماثلة تنتشر في سائر أنحاء المملكة، عدا التنظيم القبلي، وكان تدخل السلاطين في الشئون الداخلية مقصوراً على تعيين شيخ أو زعيم أو ما يعرف (بالملك) مكان الزعيم المتوفي من اسرته الحاكمة.

وربما رفضت المشيخات تسديد ما عليها من ضرائب أو الامتثال لاختيار السلطان، ومن ثم فإن قوة جيشه الرادعة كانت صمام الأمان لكثير من حالات التمرد والفصل فيها، ومع وجود هذا التنظيم الإداري الفضفاض الذي يكفل قدراً كبيراً من الاستقلال في الشئون الداخلية، فإن سعة الرقعة وتباين شعوبها والمنافسة الكامنة بين الفونج والعبدلاب أدت إلى الكثير من التوترات والتناقضات والتي ربما كانت السبب الأساسي في ضعف المملكة آخر الأمر [٢٦].

٢/ حول دوافع هذا الحلف يرى البروفسور محمد عمر بشير (أن الدافع لاتحاد هذه المملكات والمشايخ اختياريا هو حاجتها لحماية طرق القوافل التجارية وتطويره التجارة الداخلية والدفاع عن نفسها ضد الغارات المحلية والغزوات الخارجية) [٢٧].

٣/ أما محمد صالح محي الدين، فيذكر أن (علاقة الفونج بالعبدلاب كان يحكمها أن عنصر الفونج كانوا أقدم ملكاً وتحضرا وأوسع شهرة، وها الوضع منح الفونج امتيازاً تمثل في مظهر أساسي واحد هو اقتطاع جزء من موارد دولة العبدلاب لدولة الفونج، وكان هذا المال يقدم ربما بمقتضي التزام سابق، لدعم الحليف الصديق، ورمزاً للتآلف والود بين الحكومتين حين كان الود موصولاً، فلما انفصم بفعل الايام وصله العبدلاب بها المال درءاً للأخطار وثمنا زهيداً للسلم [٢٨].

(٢٦) د. يوسف فضل: المرجع السابق، ص٩٥ – ٠٦.

(٢٧) محمد عمر بشير: تاريخ الحركة الوطنية في السودان ٧٨٩١م، ص٤١.

(٢٨) محمد صالح محي الدين: مشيخة العبدلاب، ٢٧٩١م، ٩٨١.

٤/ ويقول د. نسيم مقار (وفيما عدا الجزية السنوية التي كان يأخذها السلطان السناري من هذه الممالك (ومنها مشيخة العبدلاب) وحق اختيار من يخلف الحاكم المتوفي في افراد أسرته، لم يكن له سلطة فعلية على الملوك والزعماء الذين كانوا أحراراً في تصريف شئون ممالكهم [٢٩].

وعند محاولتنا لمعرفة قيمة تلك الجزية أو الضريبة التي تدفع لسلطان سنار من قبل العبدلاب أو الممالك و المشيخات التي تتبع لإدارتهم نجد أن المصادر تغفل ذلك، ولكن الرحالة السويسري بركهات في كتابه (رحلات في بلاد النوبة) يقول (ليس لملك سنار سلطان على بربر أكثر من حق اختيار ملكها، ولكنه في ظل أربع سنين أو خمس يوفد إليها أحد رجاله ليجمع منها جزية من الذهب والجياد والإبل قوامها عشرون أو ثلاثون بعيراً على التقريب، وكان ملوك دنقلا وغيرهم من الممالك يؤدون جزية كهذه لسنار كذلك كان يؤديها عرب الشايقية، ولكنهم أمسكوا عنها بعد أن اشتد ساعدهم أخيراً) [٣٠].

٥/ ويرى الباحث جعفر طه حمزة: (أن الاتحاد الفونجي العبدلابي ورثت فيه سلالة الفونج النظام الاقطاعي للعهد النوبي المسيحي وكيفته لظروفها الجديدة وقسمت الاراضي بين أطراف الاتحاد في شكل مشيخات ومكوكيات)، وأن ذلك الاتحاد كان محاولة لاستعادة واستمرارية الوضع السياسي الذي كان سائداً في مملكة النوبة المسيحية حيث كانت الحروب تسود بين القبائل [٣١].

٦/ وحول الحلف الفونجي العبدلابي يقول كاتب الشونة (اتفق رايهم على أن يكون عمارة ملكاً عوضا عن ملك علوة، وأن عبد الله جماع يكون في مكان العرب، فتوجه واختط مدينة قري الكائنة عند جبل الرويان بالشرق وجعلها كرسي ملكه [٣٢]، وكذلك عمارة اختط مدينة سنار وجعلها كرسي ملكه).

ويواصل كاتب الشونة ويقول (ما زالا عمارة وعبد الله كالأخوين، ألا ان رتبة عمارة أعلى وأعظم من رتبة عبد الله، اذا اجتمعا في مكان، وأما إذا غاب

---

(٢٩) د. نسيم مقار: اقتصاد السودان في العصر الفونجي، ص٩.

(٣٠) بركهارت: رحلات، ص١٧١ – ٢٧١.

(٣١) جعفر طه حمزة: الاتحاد السناري، مجلة الثقافة السودانية، العدد (٨) نوفمبر ٨٧٩١م.

(٣٢) (تحولت إلى الحلفاية فيما بعد).

عمارة فيعامل عبد الله كما يعامل عمارة، ولم تزل العادة جارية في ذراريهم إلى القضاء على ملكهم) [٣٣].

٧/ ويقول د. مصطفى محمد مسعد حول الاساس المادي والاقتصادي للحلف الفونجي بعد انهيار مملكتي علوة والمقرة المسيحيتين (على الرغم من تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في هذا الجزء من حوض النيل، فان هذا لم يؤد إلى استقرار الأحوال فيه بسبب اختلال الأمن والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعي من ناحية وبينها وبين الوطنيين من ناحية أخرى، مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية وزاد الأمور تعقيدا تعطيل التجارة بين هذه البلاد وبين مصر، واختلال سير القوافل بينها بسبب اضطراب الأحوال في منطقة النوبة الشمالية، ولهذه الأسباب ظهرت الحاجة إلى انشاء حكومة مركزية تخضع لها كل القبائل المتنازعة وغير المتنازعة لإقرار الأمن وحماية التجارة وتأمين طرقها [٣٤].

وبهذا يمكن أن نلخص دوافع الحلف الفونجي – العبدلابي كالتالي:

أ/ سبب ذلك ظهور تشكيلة اقتصادية – اجتماعية كانت تتخلق في احشاء النظام القديم، وكان لابد من التعبير عنها في شكل سياسي معين يتناسب معها.

ب/ ظهور علاقة ملكية جديدة للأرض وعلائق اجتماعية جديدة، كان لابد من التعبير عنها في نظام حكم أو دولة معينة وخاصة بعد انتشار القبائل العربية واصبح لها الغلبة في أرض النوبة.

ج/ انتشار الإسلام بعد أن قويت شوكة القبائل العربية ونتيجة لحدوث هذا التحول الكمي والبطيء في معتقدات الناس بعد سبعة قرون من اتفاقية البقط، وأصبحت الغلبة للإسلام بعد اندثار المسيحية، كان لابد من وجود نظام سياسي جديد ونظام تشريعي جديد يعبر عن القوى الاجتماعية والدينية وفقاً لمعتقداتها، أي أن هناك عامل ديني أدى لقيام الحلف.

---

(٣٣) الشيخ أحمد بن الحاج: (كاتب الشونة): تاريخ ملوك السودان، تحقيق د. مكي شبيكة ١٩٤٧م، ص١.

(٣٤) د. مصطفى محمد مسعد: الاسلام والنوبة، ١٩٦٠م.

د/ وفي اطار قيام دولة الفونج، تدخل العوامل والدوافع الاقتصادية مثل: حماية تجارة القوافل، أي التجارة الداخلية والخارجية بتوفير الأمن والاستقرار وغير ذلك من وظائف الدولة، التي تنشأ في ظروف تاريخية معينة كنتاج لتناقضات وصراعات اجتماعية وطبقية تعبر عن مصالح قوى اجتماعية محددة [٣٥]. اذن يمكننا القول: ان هناك مجموعة عوامل ادت إلى قيام الحلف الفونجي – العبدلابي تتقاطع فيها عدد من الاسباب منها أسباب اقتصادية وأمنية ودينية وسياسية واجتماعية.

(٣٥) نقلًا بتصرف، د. يوسف فضل مصدر سابق.

المبحث الثالث

أصل الفونج و المجموعات الأخرى

المبحث الثالث

أصل الفونج و المجموعات الأخرى

أصل الفونج:

والحديث عن أصل الفونج ما زال محل خلاف فقد ذكر دكتور يوسف فضل (أن أصل الفونج ما زال يكون مشكلة رئيسية في تاريخ السودان) [٣٦].

أما عثمان أحمد عبد الرحيم فقد قال (أصل الفونج الذين أسسوا مملكة سنار (١٥٠٤ – ١٨٢١) هناك رواية تربطهم بالشلك وأخرى بالحبشة وأخرى ببني أمية وأخرى بالبرنو وأخرى بجنوب النيل الأزرق) [٣٧]، ونقل لنا آراء كتاب سابقين قائلاً (إن الاقتباسات التي أوردها نالدر من دفتر يومياته لا تعطي انطباعاً حسناً، ففي حقيقته الامر الاقتباس الوارد كفترة واحدة هو عبارة عن مزج لفقرتين.

الأولى: قيدها في تواوا[٣٨] في ولاية القضارف في ٢٣مارس، وحتى قبل أن يصل سنار، وتقرأ أن الفونج يرجع أصلهم للشنقالا أو المهج.

والثانية: ويطلق عليهم اسم الفونج أي الشنقالا تحولوا إلى الإسلام، وقيدها مباشرة بعد وصوله لسنار في آخر أبريل... وفي يونيو كتب بروس (Bruce) أن ملك سنار يدعي أنه سليل قبيلة عربية نبيلة المحتد وهي بني أمية ولكن شعره الجعد وملامحه الزنجية ولونه الأسود تدل على أنه من الشنقالا والاسم على وجه الدقة هو شلك...

إن كلمة شنقالا تطلق في الحبشة على شديدي السواد، ويلاحظ التضارب الذي جمع بين كلمة الشلك وشنقالا وإقحام معنى الكلمة عند الحبش) [٣٩]، ويتفق الباحث مع رأي عثمان أحمد عبد الرحيم في أن ما كتبه نالدر حاول أن يؤكد

---

(٣٦) د. يوسف فضل حسن، تاريخ الممالك في السودان الشرقي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٧٩١م، ص٥٤.

(٣٧) ا.ج.اركل، أصل الفونج، ترجمة عثمان أحمد عبد الرحيم، عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، ٢٠٠٢م ص٤، ٣.

(٣٨) قرية صغيرة على نهر العطبراوي. في مواجهة الفشقة الكبرى.

(٣٩) المرجع السابق، ص٠٧.

فيـه أن الفونـج لا علاقـة لهـم بالعـرب، وأنـه كتـب ذلـك قبـل أن يصل سـنار، كمـا يتضـح مـن ألفاظـه أنـه يتهـم ملـك سـنار بأنـه يدعـي النسـب العربـي، وهـذه نظـرة الاسـتعمار إلى أن أهـل السـودان ليـس عربـاً، وهـذا مـا ذكـره عثمـان أحمـد عبـد الرحيـم (أن موضـوع أصـل الفونـج في رأيـي، يمثـل الصـورة المصغـرة لهويـة أهـل السـودان وان النظـرة التجزيئيـة العرقيـة التـي رسـخها الاسـتعمار لحـل المشـكل في إطـاره قـد تنبـه لهـا كثـير مـن مثقفينـا وأكـدوا خلطهـا، وأدى ذلـك إلى قيـام مـدارس نظـرت في التاريـخ السـياسي وهـي تحمـل المسـتعمر إخفـاء حقيقـة بسيطة عـن أهـل السـودان، وهـي أن السـودان ليـس فيـه عـرب خلـص ومـن ثـم الدعـوة للهويـه السـودانية الخاليـة مـن أي تعصـب سـلالي والدعـوة إلى الوحـدة مـع التمايـز والتركيـز عـلى مـا يجمـع لا عـلى مـا يفـرق مـن العربيـة والإفريقيـة...) [٤٠].

وإذا نظرنـا إلى الكتـاب الذيـن لهـم اتجاهـات للقوميـة العربيـة مثـل عبـد العزيـز حسـين الصـاوي ومحمـد عـلي جاديـن نجدهمـا يفـسران قيـام دولـة الفونـج بقولهمـا (تعـود القمـة الأولى للتاريـخ السـياسي للعروبـة – الإسـلامية في السـودان إلى النصـف الأول مـن القـرن السـادس عـشر حـين تمخـض التفاعـل الطويـل بـين الحضـارة العربيـة والمـوروث المحـلي الوثنـي – المسـيحي – النوبـي – البجـاوي عـن نشـوء أول دولـة عربيـة – إسـلامية في تاريـخ السـودان وهـي السـلطنة الزرقـاء أو مملكـة الفونـج (١٥٠٤ – ١٨٢١) [٤١].

وهـذا الحديـث يقـود إلى رأي اركل (Arkell) الـذي يقـول (وقيـل إنهـم قـوم أتـوا مـن الغـرب، ويحتمـل أن يكونـوا مـن الأسرة المالكـة مـن مملكـة البرنـو) [٤٢].

أمـا ماكمايـكل (MacMickle) فيقـول (أمـا الفونـج أنفسـهم فيقولـون إنهـم مـن ذراري الأمويـين الذيـن لجـأوا إلى ملـك الحبشـة فـراراً مـن بنـي العبـاس) [٤٣].

أمـا دكتـور قيـصر مـوسى الزيـن فقـد قـال (لا توجـد اليـوم أمـام المؤرخـين سـوى روايـات متضاربـة وإشـارات غـير قاطعـة في دلالتهـا عـلى حقيقـة أصـل الفونـج، وتنـاول ذلـك في ثـلاث نظريـات:

(٤٠) المرجع السابق، ص٧.

(٤١) عبد العزيز حسين الصاوي ومحمد علي جادين، الثورة المهدية مشروع رؤية جديدة، الفارابي ١٩٨٧م ص٩.

(٤٢) Arkell A .J: A History of the Sudan, pp ٢٠٦ – ٢٠٧ , London ١٩٥٥

(٤٣) MacMickle H .A .A History of the Arabs in the sudan , ٢vols. Cambridge ١٩٢٢ , pp٣٦ – ٣٧..

النظريـــة الأولى الأصـــل الأمـــوي للفونـــج، وهـــذه النظريـــة تنســـبهم تـــارة إلى بعـــض بنـــي مـــروان الذيـــن هربـــوا مـــن العباســـيين في عـــام ٧٥٠م وأن بعضهـــم تخلـــف بالســـودان وتصاهـــروا مـــع ملـــوك الســـودان، وتوضـــح أشـــجار النســـب التـــي يرجـــع إليهـــا الفونـــج إلى أن أجدادهـــم العمريـــين نســـبة إلى عمـــارة دنقـــس أو عمـــيرة وأنهـــم مـــن نســـل ســـليمان بـــن عبـــد الملـــك وأن جدهـــم فـــر مـــن ســـوريا إلى الحبشـــة في عهـــد الخليفـــة العبـــاسي الأول، وأنـــه غـــادر الحبشـــة إلى الســـودان بأمـــر ملكهـــا الـــذي خـــشي بـــأس العباســـيين وتـــزوج ابنـــة الملـــك وحـــدث التناســـل بينهـــم...).

والنظريـــة الثانيـــة وهـــي الاصـــل الشـــلكاوي، ويقـــول إن صاحـــب هـــذه النظريـــة الرحالـــة جيمـــس بـــروس، وقـــد ورد التعـــرض لذلـــك في الصفحـــات الســـابقة.

والثالثـــة وهـــي الأصـــل البرنـــاوي. وهـــي نظريـــة اركل الـــذي افـــترض أن عمـــارة دنقـــس مـــن نســـل مـــاي عثمـــان وان لفـــظ عمـــارة متـــداول في أســـماء ملـــوك البرنـــو، ودعـــم اركل نظريتـــه بمـــا وقـــف عليـــه مـــن تشـــابه في الأســـماء والعـــادات واللغـــة بـــين البرنـــو والفونـــج وانتمـــاء المجموعتـــين إلى المذهـــب المالكـــي [٤٤].

قـــال عـــن النظريـــات الثـــلاث دكتـــور قيـــصر: يلاحـــظ في النظريـــات الثـــلاث الطابـــع الافـــتراضي والاعتمـــاد عـــلى الاســـتنتاج الـــذي لا يخلـــو مـــن الخيـــال، ويأخـــذ بهـــذا الـــرأي يوســـف فضـــل حســـن يقـــول: (إن الغمـــوض يحيـــط بنســـب الفونـــج فالروايـــات الوطنيـــة تنســـبهم إلى الأمويـــين) [٤٥].

ويـــرى الباحـــث أن الفونـــج مـــن أصـــل عربـــي، فهـــم قبائـــل عربيـــة جـــاءت مـــن الجزيـــرة العربيـــة وأســـقطت دولـــة علـــوة المســـيحية وذلـــك حســـب روايـــات الأهـــل بقـــوز الفونـــج بمنطقـــة بربـــر الذيـــن يقولـــون بذلـــك [٤٦].

و أيضـــا الباحـــث لا يســـتبعد أصلهـــم في نســـبته إلى بنـــي أميـــة حيـــث نجـــد أن بنـــي أميـــة (يســـمون اليزيـــد في منطقـــة الكربـــة في نواحـــي مدينـــة أبوحمـــد منطقـــة الرباطـــاب)،

---

(٤٤) د. قيـصر مـوسى الزيـن، فـترة انتشـار الإسـلام والسـلطنات ١٤٦ – ١٢٨١م، مركـز محمـد عمـر بشـير للدراسـات السـودانية، ١٩٨٨م، ص ٣٤ – ٩٤. س

(٤٥) Yusuf Fadl Hasan. The Arabs & the Sudan, EDINBURCH, ١٩٦٦, P١٧٣.

(٤٦) منطقـة قـوز الفونـج تقـع في منطقـة بربـر القديمـة المعروفـة باسـم المخـيرف، قريـة قـوز الفونـج تجـاور مدينـة بربـر التاريخيـة القديمـة وهـي عبـارة عـن قـوز خرسـاني عـال يـشرف عـلى المدينـة وكانـت منـزل للطـلاب الأزهريـين القادمـين مـن مملكـة الفونـج في طريقهـم إلى الأزهر الشريـف بمـصر و الحـج إلى بيـت اللـه الحـرام، وكانـت معقـلا لقوافـل الإبـل القادمـة مـن تمبـول في طريقهـا إلى أسـوان بمـصر.

لهم صفاء في اللون لاختلاطهم بعرب المنطقة، ولما خالطوا بعض ذوي البشرة السوداء صارت ألوانهم كألوان أمهاتهم. فليس اللون ما يبعدهم عن الأصل العربي ونسبتهم إلى البيت الأموي. ولا سيما نحن نعرف نزوح القبائل العربية إلى السودان. ومن ضمنها أكثر من ألفي أموي بعد قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م [٤٧].

وبالرغم من الآراء الكثيرة حول أصل الفونج فإنهم أقاموا دولة إسلامية تعتبر الأولى في السودان، كما قال محمد الخليفة الحسن أبو قرون (وانحصر الأمر اخيراً في يد عمارة دنقس زعيم الفونج الذي جمع رجاله في جبل مويا وعبد الله جماع شيخ عرب القواسمة الذي اجتمعت حول القبائل العربية، وتعاهدا على إزالة مملكة علوة، فدارت بينهم معركة في أبرجي في عام ٩١٠هـ - ١٥٠٥م انتصر فيها الخليفان وفر العنج... وبهذا الانتصار أرسى دعائم المملكة الإسلامية الأولى في السودان مملكة سنار التي امتد ظلها غرباً غلى مداخل جبال كادقلي، وشمالاً وشرقاً إلى البحر الأحمر) [٤٨].

أصول المجموعات العرقية في السودان:

تاريخ وجود الإنسان في السودان قديم جداً ويرجع إلى أكثر من سبعة الف عام [٤٩]، وعلى مدار التاريخ ظلت توافد مجموعات بشرية إلى السودان بشكل استمر بلا انقطاع، وأسهمت إسهاماً مباشراً في صناعة حضارة التاريخ ؛ غير أن من المؤكد أنَّ السمة الغالبة لهذا التوافد ليس الثبات بل الحركة والتنقل. بيد أن أول وجود ذي بال للحضارة كان في بلاد النوبة نشأ عن عرفوا عند الدارسين بالمجموعات الحضارية " الأولى والثانية والثالثة "، ويرجع هؤلاء الدارسون أنهم ينتمون إلى جنس البحر المتوسط، وأن بهم شيئاً من العنصر الزنجي.

وأن هذه المجموعات – بعد تعرضها إلى تدخلات فرعونية وحامية وغيرها من العناصر البشرية – انحدرت الفصائل التي أنشأت الحضارة في السودان القديم وهم النوبة والعنج.

---

(٤٧) انظر: موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ٧١٤١ هـ/ ٦٩ - ٧٩ م، أحمد معمور العسيري، الناشر: غير معروف (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض) الطبعة: الأولى، ٧١٤١ هـ - ٦٩٩١ م، ص: ٨٧٤.

(٤٨) محمد الخليفة الحسن أبو قرون، الطريقة القادرية في السودان والدعوة إلى الله، دار الأديب للطباعة والنشر، ١٠٠٢م ص ٦٣١ – ٧٣١.

(٤٩) أمل عمر أبو زيد، الملامح العامة لتاريخ السودان القديم، مركز محمد بشير عمر للدراسات السودانية، دار الزهراء، الخرطوم، ٧٩٩١م، ص٠٣٢.

وفي الـشرق سـكنت العنـاصر التـي عرفـت عنـد العـرب باسـم البجـة، وتعرضـوا كذلـك للاختـلاط بسـكان النيـل والمصريـين، كمـا جـاء في المخططـات المرويـة و الكوشـية والفرعونيـة، كمـا خالطـوا الأحبـاش، وخالطهـم العـرب في هجـرات قديمـة لقبائـل حمـير.

أمـا الغـرب فقـد توافـدت إليـه مجموعـات كبـيرة مـن وادي النيـل عـبر دارفـور غربـاً وحتـى تشـاد ونيجيريـا، وبالقـدر نفسـه كانـت هنـاك هجـرات عكسـية مـن غـرب إفريقيـا إلى دارفـور.

ولا شـك أنـه كان لموقـع دار فـور الفريـد أثـر كبـير فى تنـوع السـلالات التـي يضمهـا هـذا الإقليـم مـن ناحيـة، وتعرضـه لمؤثـرات ثقافيـة مـن ناحيـة أخـرى.

وقد أمكن تقسيم هذه السلالات إلى خمس مجموعات:

المجموعـة الأولي: ومصدرهـا إقليـم تبتـي ومـا يليـه مـن ناحيـة الغـرب إلى أواسـط الصحـراء الكـبرى وهـي تضـم القرعـان والبدايـات والزغـاوة وهـي تمتـد بهـذا الترتيـب مـن الشـمال إلى الجنـوب حتـى المنحـدرات الشـمالية لجبـال مـرة.

المجموعـة الثانيـة: ومصدرهـا إقليـم النوبـة وهـي الميـدوب ومركزهـم جبـل ميدوب عـلى مسـيرة سـتة أيـام شـمال شرقـي الفـاشر والتنجـر وتقـع ديارهـم إلى الـشرق مـن جبـل مـرة وقيـل أنهـم كانـوا يحكمـون البـلاد ثـم أغتصبهـا منهـم الفـور.

المجموعـة الثالثـة: وهـي التـي تأثـرت بالهجـرات والثقافـة النوبيـة ولكنهـا لـم تتأثـر كثـيراً بالدمـاء النوبيـة وهـي تتألـف مـن البرتـي Berti ومركزهم جبـل (تقابو) عـلى مسـيرة ثلاثـة أيـام إلى الشـمال مـن الفـاشر والداجـو ومركزهـم جبـل داجـو ٠

المجموعـة الرابعـة: وهـي المجموعـة الغربيـة ومصدرهـا الأقاليـم الجنوبيـة مـن ليبيـا أو مـا كان يعـرف باسـم السـودان الفرنـسي الممتـد حتـى حـوض نهـر النيجـر. وتشـتمل عـلى عنـاصر مـن الفلاتـا والميمـة والبرتـو والتكارنـة المراريـت وينتـشرون بـين كبكابيـة وكلـكل.

المجموعـة الخامسـة: وهـي أقـدم هـذه المجموعـات وتضـم خمسـة قبائـل هـي القمـر ومركزهـم يقـع عـلى مسـيرة ثلاثـة أيـام إلى الشـمال مـن كلـكل ويليهـم

تماماً من جهة الغرب والجنوب الغربي الارتجا وهم فى نظر البعض جماعة واحدة ثم المساليت ويقعون بين الغور شرقاً ووداي غرباً ودار تاما شمالاً ودار سولا جنوباً.

وأخيراً الفور ووطنهم الرئيسي الجبال ومركزهم جبل مرة والأرجح أنهم أقدم هذه العناصر جميعاً ولعل هذا ما يبرر تسمية الإقليم باسمهم [٥٠].

أما الإقليم الجنوبي فقد شهد تحركات سكانية امتدت من بدايات القرن الميلادي الأول ؛ فقد وفدت مجموعة تعرف باسم "اللول" سكنت على امتداد بحر الغزال – سابقة لمجيء الدينكا والنوير – وأصول هذه المجموعة زحفت من الشمال غالباً من كردفان [٥١].

وفي بداية القر الثالث عشر الميلادي – أي بعد ستة قرون من محاولة الفتح الإسلامي الأول التي انتهت بمعاهدة البقط – تكاثفت الهجرات العربية بشكل كبير من مصر ومن الجزيرة العربية نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية، وانفتح المهاجرون العرب على الشعوب السودانية من نوبة وبجة وعنج معايشة واختلاطاً ؛ مستغلين نظام الوراثة والنسب عن طريق الأم لبسط نفوذهم السياسي ؛ فقد صاهرت قبيلة ربيعة البجة في الشرق، وصاهرت فروعها النوبة في أرض المريس، نتج عن هذه المصاهرة الأحفاد المعروفون " ببني كنز " الذين استطاعوا الوصول إلى عرش النوبة ؛ مما كان له أثر في إضعاف الكيان السياسي للنوبة حتى سقطت دولتهم " المقرة " لينفتح الباب على مصراعيه لتوغل العرب – وخاصة قبائل جهينة – إلى حوض وادي النيل الأوسط ومتابعة السير إلى أرض البطانة والجزيرة، عبر بعضهم النيل إلى كردفان ودارفور، وهناك التقوا بوافد بشري سار محاذياً لشواطئ النيل الغربية إلى دنقلا فكردفان ودارفور [٥٢].

---

(٥٠) شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته. القاهرة ٣٠٩١، ج ١ ص ٨٤- ٩٤، محمد عوض محمد:السوداني الشمالي القاهرة ١٥٩١ص ٦٦٢ ٠٧٢..

وأيضاً: ff ٢٥.pp,٢٢٩١ egdirbmaC,naduS eht ni sbarA eht fo yrotsiH A,.H.leahciM caM

(٥١) أحمد محمد علي الحاكم، هوية السودان الثقافية، منظور تاريخي، دار جامعة الخرطوم للنشر ٠٩٩١م، ص ١٣-٥٣.

(٥٢) يوسف فضل حسن، سلطنة الفونج الإسلامية، دورها في تاريخ سودان وادي النيل، " بحث "، مجلة " دراسات إفريقية "، جامعة إفريقيا العالمية، العدد ٢٢، ديسمبر ٩٩٩١م.

لما كان معظم هؤلاء العرب من البدو ؛ فقد ظلوا على بداوتهم وترحالهم، غير أن جماعات غير يسيرة عمدت إلى الاستقرار واختلطت بالسكان المحليين، وقد أدى هذا التوافد العربي الكثيف إلى إسقاط الكيانات السياسية التي كانت موجودة " المقرة – وعلوة "، ونشأت على أثرها مشيخات وإمارات عربية.

وهكذا أضفت الهجرات العربية صبغة جديدة على التركيبة السكانية في السودان ؛ فنتيجة لحركة المصاهرة والاختلاط والحركة والتنقل ظهرت الكيانات القبلية المعروفة لدينا الآن في السودان الشمالي ؛ فالقبائل النوبية في الشمال كالدناقلة والمحس والكنوز والسكوت دخلت في الإسلام ونالت حظاً من الاستعراب، ولكنها ظلت محتفظة بلغاتها ولهجتها وعاداتها المتوارثة – كذلك الأمر بالنسبة للقبائل البجاوية في الشرق كالأمرار و الهدندوة والبشارين، وقبائل الزغاوة والمساليت والفور والتاما في الغرب، أما القبائل المصنفة عربياً مثل الجعليين والشكرية والبطاحين والكواهلة ودغيم وكنانة والكبابيش والبقارة والرزيقات والتعايشة ؛ فإنها تأثرت في سحناتها بالتداخل مع السكان المحليين، ولكنها ظلت تحتفظ بكيانات قبلية تستشعرها وتعتز بها.

المبحث الرابع

منافذ الدخول الى السودان

المبحث الرابع

منافذ الدخول الى السودان

أ / مدخل البحر الأحمر:

الفونج وصلاتهم بالحجاز:

كان طبيعياً أن يصاحب قيام دولة إسلامية فى السودان محاولات من القائمين على الحكم فيها لتوثيق علاقاتهم بالدول الإسلامية وخاصة فى النواحي الثقافية والدينية، لتبدأ حركة علمية تقوم بشرح تفاصيل الدعوة الإسلامية ومبادئها للناس لنهيهم عما يتعارض من عاداتهم ومعتقداتهم مع الإسلام والعقيدة الصحيحة.

وتتفق المراجع التاريخية [٥٣]على أن الحركة العلمية والثقافية التي صاحبت قيام دولة الفونج كان مصدرها مصر والحجاز، واليمن، والمغرب العربي.

فقد كان طبيعياً أن يرنو السلاطين دولة الفونج بأبصارهم إلى الحجاز وتوثيق علاقتهم به فبالإضافة إلى شرف الانتماء إلى آل البيت، فإن الحج إلى البيت الحرام كان أملاً يراود الملوك والعلماء والتجار والعامة.

كما كان من عوامل الاتصال و التواصل التجارة وسهولة الاتصال المباشر بالحجاز من سواكن عبر البحر الأحمر [٥٤]، كل هذا بلا شك أسهم في التشجيع على قيام علاقات ثقافية بين السودان والحجاز، وأثر ذلك تأثيرا مباشرا في انتقال الثقافة الحجازية إلى السودان بفضل بعض السودانيين الذين خرجوا من بلادهم إلى الحجاز يطلبون العلم، وأيضاً بعض المشايخ الذين وفدوا إلى السودان من الحجاز لنشر أفكارهم ومبادئهم.

ومن العلماء الذين تذكروهم الراويات والذين حضروا من الحجاز إلى السودان

---

(٥٣) الثقافية فى عهد الفونج: انظر: عبد المجيد عابدين:المرجع السابق ص ٦٥، ٧٥ حسن إبراهيم حسن:المرجع السابق، ص ٢٥١، ٤٥١، يحي محمد إبراهيم:المرجع السابق، ص ٢٤، ٤٤.

(٥٤) إحدى قرى المديرية الشمالية بالسودان (ديار الشافعية)

السيد " أحمد البيلي " الذي ولد فى مكة ودرس بالحرم المكي، ثم هاجر للسودان عن طريق جدة، وعبر البحر الأحمر عن طريق سواكن إلى أن نزل بمدينة " شندي " حوالي ٩٣٢هـ /١٥٢٦م ثم سار إلى " مروى " حتى أستقر فى " تنقاس " [٥٥]، وتزوج هناك ويقال أنه نال تكريماً من الملوك[٥٦].

ومن العلماء أيضاً الذين وفدوا إلى السودان من المدينة المنورة الشيخ عيسى بن بشارة الأنصاري، والذي أسس مدرسة للتعليم بقرية " كترانج " التي تقع على الضفة اليمني للنيل الأزرق على بعد ٣٦ ميلاً جنوب الخرطوم، وقد أقبل الناس على الشيخ عيسى وأبناءه وأحفاده يتلقون عليهم العلم، وكان الشيخ عيسى بارعاً فى المذهبين المالكي والشافعي ونابغة فى العلوم المعقولة والمنقولة[٥٧].

ويذخر كتاب طبقات " ود ضيف الله " [٥٨]بالعديد من العلماء السودانيين الذين ذهبوا إلى الحجاز سواء للحج أو للمجاورة والدراسة والتعليم، وكذلك من حضر من العلماء والشيوخ إلى السودان لنشر الدعوة الإسلامية والثقافة الدينية.

أشهر العلماء الذين قدموا من الحجاز إلى السودان:

ولعل أشهر العلماء الذين قدموا من الحجاز إلى السودان على الإطلاق هو الشيخ (تاج الدين البهاري)[٥٩] الذي جاء إلى السودان تلبيةً لدعوة أحد التجار السودانيين المشهورين[٦٠].

ويقال أن الشيخ " تاج الدين " أستقر فى أرض الجزيرة بالسودان حوالي سبع سنوات، تمكن فيها من إدخال الطريقة القادرية الجيلانية وسلك العديد من

---

(٥٥) إحدى قرى المديرية الشمالية بالسودان (ديار الشافعية)

(٥٦) يحي محمد إبراهيم:المرجع السابق ص ٦٤

(٥٧) عز الدين الأمين: قرية كترانج وأثرها العلمي فى السودان (مجلة الدراسات السودانية، مجلد ٢، عدد أول مارس سنة ٠٧٩١م (من ص ٨٤ إلى ص ٠٧)

(٥٨) ولمزيد من التفاصيل عن الطبقات انظر: مقدمة التحقيق، وأيضاً: الذيل والتكملة: رجز إبراهيم عبد الرافع، شرح الشيخ أحمد السلاوي، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم، ويوسف فضل حسن. الخرطوم فبراير سنة ١٨٩١من ص ١ إلى ص ٤١.

(٥٩) هو محمد تاج الدين البهاري البغدادي: أحد خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلاني،حج إلى بيت الله الحرام وأثناء تواجده هناك، دعاه أحد التجار السودانيين لزيارة السودان فقدم من هناك وأقام بمنطقة الجزيرة حوالي سبع سنوات وهناك خلاف بين الباحثين فى تاريخ قدومه.

(٦٠) Trinignhan J.S: Op.Cit.P218

المريديـن، وقـد قـام هـؤلاء بتسـليك غيرهـم بعـد عـودة شـيخهم مـرة ثانيـة إلى الحجـاز[٦١].

ومـن أشـهر مـن تتلمـذ عـلى يـده مـن القائمـين عـلى الحكـم فى السـودان وقتـذاك الشـيخ عجيـب الكبـير [٦٢]والـذي كان لـه الفضـل الكبـير فى وضـع أسـس للحيـاة الإسـلامية الثقافيـة فى السـودان وجعلهـا تأخـذ طابعهـا العلمـي المنظـم[٦٣].

ويـرى د. حسـن إبراهيـم حسـن أن أثـر العلمـاء والشـيوخ الذيـن حـضروا مـن الحجـاز إلى السـودان فى عهـد الفونـج " فى أنهـم لـم يكتفـوا بإنشـاء الزوايـا فى بـلاد الفونـج فقـط بـل عملـوا عـلى نـشر الإسـلام فى مناطـق أخـرى مـن السـودان حيـث مـضى بعضهـم صـوب الغـرب حتـى بلغـوا دار فـور.

ولا شـك أنـه كان لموقـع دار فـور الفريـد أثـر كبـير فى تنـوع السـلالات التـي يضمهـا هـذا الإقليـم مـن ناحيـة، وتعرضـه لمؤثـرات ثقافيـة مـن ناحيـة أخـرى.

ومـن أوائـل السـودانيين الذيـن سـافروا الحجـاز فيمـا يعـرف هـو الشـيخ العجمـي الـذي جـاور بمكـة، وسـكن فى ربـاط العبـاسي، وانقطـع للذكـر والعبـادة ومـات دون أن يتـزوج [٦٤].

وأيضـاً الشـيخ عبـد اللـه دفـع اللـه العركـي الـذي حـج أربعـاً وعشريـن حجـة اثنتـي عـشرة ذهابـاً وإيابـاً واثنتـي عـشرة جـواراً وأشـتهر هنـاك بالعلـم ودرس في مكـة وعـاد إلى بـلاده مرشـداً للنـاس[٦٥]. وهنـاك فئـة كانـت تسـافر للحجـاز طلبـاً للعلـم [٦٦]والانتسـاب لطريـق مـن الطـرق الصوفيـة فالشـيخ حمـد المجـذوب (١٦٩٣-١٧٧٦) ذهـب إلى هنـاك، وأخـذ الطريقـة الشـاذلية عـن الفقيـه " عـلى الـداروى "

---

(٦١) الطبقات: نفس المرجع، ص ٤٤، ٥٤، الذيل والتكملة ص ٢٥.

(٦٢) هـو الشـيخ عجيـب بـن الشـيخ عبـد اللـه جمـاع أحـد مؤسـسي دولـة سـنار، ويقـال أن هـذا الشـيخ قـد جلـس عـلى كـرسى الحكـم لمـدة طويلـة (٠٧٩-٩١٠١هــ /٣٦٥١ ٠١٦١م) وكان مؤلفـاً بالثقافـة الإسـلامية لذلـك بنـي المسـاجد ودور العلـم وأنشـأ أروقـة للسـودانيين بالأزهـر والحرمـين وعمـل خفـير عـلى طريـق الحـج والتجـار ممـا ذلـل مـن وعورتـه، محمـد سـليمان: المرجـع السـابق، ص ٠٢

(٦٣) يحي محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص ٤٤

(٦٤) شـقير: تاريـخ السـودان القديـم والحديـث وجغرافيتـه. القاهـرة ٣٠٩١، ج ١ ص ٨٤- ٩٤، محمـد عـوض محمد:السـودان الشـمالي القاهـرة ١٥٩١ص ٦٦٢ ٠٧٢ وأيضـاً:

ff ٢٥.pp,٢٢٩١ egdirbmaC,naduS eht ni sbarA eht fo yrotsiH A,.H.leahciM caM

(٦٥) الطبقات تحقيق يوسف فضل ص ٨٨، الذيل والتكملة ص١٢

(٦٦) نفس المرجع ص ٩٢

المغربـي، وصـار مـن مريديهـا في الحجـاز، ثـم نشرهـا بعـد عودتـه بـين مريديـه مـن الجعليـين وبعـض البجـة(٦٧).

و" محمـد بـن عـدلان الحوشـابي الشـايقي " قـرأ علـم الـكلام والمنطـق والأصـول عـلى الفقيـه " عبـد اللـه المغربـي " عالـم المدينـة المنـورة، ثـم قـدم إلى " تنقـاس" مـن دار الشـايقيه، فقـرأ بهـا القـرآن، وكان آمـراً بالمعـروف ناهيـاً عـن المنكـر، وكان عالمـاً مجـدداً(٦٨).

ونلاحـظ أيضـاً أن بعـض علمـاء السـودان قـد أشـاد بهـم علمـاء الحرمـين والحجـاز فمثـلاً الشـيخ " جنيـد ولـد طـه " أعطـاه اللـه قبـولاً تامـاً عنـد الملـوك والسـلاطين " ولا سـيما أهـل الحرمـين والحجـاز وحـده (٦٩)وعبـد اللطيـف بـن الخطيـب عمـار بـرع فى مجـال التدريـس هنـاك، وقـد مدحـه أحـد علمـاء الحجـاز، وقـال عنـه " عالـم الديـار السـنارية وعلامـة الأقطـار الإسـلامية(٧٠).

ولـم يكتـف السـودانيين بالدراسـة والتعليـم فقـط فى الحجـاز (٧١)بـل جلـب الكثـيرون منهـم معهـم مـن هنـاك العديـد مـن الكتـب العربيـة الدينيـة والثقافيـة فيقـال أن الشـيخ عبـد الرحمـن بـن الشـيخ صالـح بـان النقـى مـلأ مـن الكتـب التـي طلبهـا مـن الحجـاز ومـصر سـت خزانـات(٧٢). ويقـال أيضـاً أن " عمـار بـن عبـد الحفيـظ أحـضر معـه نحـو رحلـين أو ثلاثـة مـن الكتـب (٧٣).

ومـن أوائـل السـودانيين الذيـن سـافروا الحجـاز فيمـا يعـرف هـو الشـيخ العجمـي الـذي جـاور بمكـة، وسـكن فى ربـاط العبـاسي، وانقطـع للذكـر والعبـادة ومـات دون أن يتـزوج (٧٤).

---

(٦٧) الطبقات: نفس المرجع ص ٧٨١-٨٨١.

(٦٨) نفس المرجع ص ٩٥٢.

(٦٩) المرجع السابق: ص،٩٩٢.

(٧٠) أعلاه ذات الصفحات.

(٧١) الطبقات: نفس المرجع ص ١٩٢

(٧٢) وثيقة عن القمصان الحجازية لم تصلح للتعليم ص ١٥٦.

(٧٣) الطبقات: نفس المرجع ص ٩٥٢.

(٧٤) شـقير: تاريـخ السـودان القديـم والحديـث وجغرافيتـه. القاهـرة ٣٠٩١، ج ١ ص ٨٤- ٩٤، محمـد عـوض محمد:السـودان الشـمالي القاهـرة ١٥٩١ص ٦٦٢ ٠٧٢ وأيضـاً:

ff ٢٥.pp,٢٢٩١ egdirbmaC,naduS eht ni sbarA eht fo yrotsiH A,.H.leahciM caM

وأيضاً الشيخ عبد الله دفع الله العركي الذي حج أربعاً وعشرين حجة اثنتي عشرة ذهاباً وإياباً واثنتي عشرة جواراً وأشتهر هناك بالعلم ودرس في مكة وعاد إلى بلاده مرشداً للناس(٧٥). وهناك فئة كانت تسافر للحجاز طلباً للعلم (٧٦)والانتساب لطريق من الطرق الصوفية فالشيخ حمد المجذوب (١٦٩٣-١٧٧٦) ذهب إلى هناك، وأخذ الطريقة الشاذلية عن الفقيه " على الداروى " المغربي، وصار من مريديها في الحجاز، ثم نشرها بعد عودته بين مريديه من الجعليين وبعض البجة(٧٧).

و" محمد بن عدلان الحوشابي الشايقي (٧٨)" قرأ علم الكلام والمنطق والأصول على الفقيه " عبد الله المغربي " عالم المدينة المنورة، ثم قدم إلى " تنقاس" من دار الشايقيه، فقرأ بها القرآن، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وكان عالماً مجدداً(٧٩). ونلاحظ أيضاً أن بعض علماء السودان قد أشاد بهم علماء الحرمين والحجاز فمثلاً الشيخ " جنيد ولد طه " أعطاه الله قبولاً تاماً عند الملوك والسلاطين " ولا سيما أهل الحرمين والحجاز وحده (٨٠)وعبد اللطيف بن الخطيب عمار برع فى مجال التدريس هناك، وقد مدحه أحد علماء الحجاز، وقال عنه " عالم الديار السنارية وعلامة الأقطار الإسلامية(٨١). ولم يكتف السودانيين بالدراسة والتعليم فقط فى الحجاز (٨٢)بل جلب الكثيرون منهم معهم من هناك العديد من الكتب العربية الدينية والثقافية فيقال أن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ صالح بان النقى ملأ من الكتب التي طلبها من الحجاز ومصر ست خزانات(٨٣).

---

(٧٥) الطبقات تحقيق يوسف فضل ص ٨٨، الذيل والتكملة ص١٢

(٧٦) نفس المرجع ص ٩٢

(٧٧) الطبقات: نفس المرجع ص ٧٨١-٨٨١.

(٧٨) نسبة إلى قبيلة الشايقية: الشايقية من أشهر قبائل العرب في سودان وادي النيل، وهم محاربين أشداء أهل شكيمة وعزيمة، يقيمون على النيل الكبير. وتنقسم إلى عدة أفخاذ، أشهرها: العادلاناب، السواراب، الحنيطاب، العماراب. وقد اشتهروا في أيام سلطنة الفونج وحاربوا إسماعيل باشا، وهو سائر لفتح سنار، فغلبهم، وجند نفراً منهم في جيشه، وهم موصوفون بالشجاعة، والكرم، والضيافة، وحب العلم، والفقهاء).
"معجم قبائل العرب" (٢/ ٦٧٥).

(٧٩) نفس المرجع ص ٩٥٢.

(٨٠) المرجع السابق: ص،٩٩٢.

(٨١) أعلاه ذات الصفحات.

(٨٢) الطبقات: نفس المرجع ص ١٩٢

(٨٣) وثيقة عن القمصان الحجازية لم تصلح للتعليم ص ١٥٦.

ويقال أيضاً أن " عمار بن عبد الحفيظ أحضر معه نحو رحلين أو ثلاثة من الكتب [٨٤]. إذن ثمة عوامل أدت إلى توطيد وتوثيق أواصر الصلة بين الحجاز والسودان اعتبارا من عهد الفونج تميزت برحيل علماء من السودان للحج والمجاورة والعلم والتجارة ثم العودة لنشر الثقافة الإسلامية بين السودانيين.

فقد كانوا فور عودتهم يبادرون بتأسيس الخاوي[٨٥] والمساجد ويعلمون فيها الناس القرآن والدين بالإضافة إلى بعض الشيوخ الذين حضروا من الحجاز إلى السودان لنشر مبادئ الشريعة الإسلامية.

ومن آخر القبائل العربية قدوما إلى سودان وادي، قبيلة الرشايدة وهي من قبائل العرب. تقيم في الصحراء الشرقية المعروفة أيضاً بصحراء البجة بالسودان، وهي قريبة عهد بها، وقد هاجرت إليها من الحجاز سنة ١٢٨٨ و ١٨٧١م، بسبب قتال وقع بينها وبين بعض القبائل هناك، فعبرت البحر الاحمر، من جدة، ونزلت في أرض الحباب، وكانت تعد نحو ألف رجل، ومعهم أسلحتهم، وأولادهم، وإبلهم، فاعترضهم الحباب، وجرت بين الفريقين وقائع أدت إلى سفك الدماء، وهم حتى سنة ١٩٠٣م فريقان: أحدهما تابع لحكومة السودان، والآخر لحكومة الأريترية. [٨٦]، ومن قبلهم قبيلة الحلنقة، وهي قبيلة هوازن العربية المعروفة.

هجرات القبائل العربية لسودان وادي النيل:

و قد صاحب الفتح الإسلامي هجرات بطون بعض القبائل والجماعات العربية التي استقرت في تلك المناطق ونشرت معها ثقافتها الإسلامية العربية وأصبحت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدولة الإسلامية، وخاصة موانئ السودان الشرقية والتي ارتبطت بموانئ الحجاز عقب السيطرة العثمانية على الشرق العربي ثم الحرمين في الحجاز، فأصبحت الموانئ الشرقية والغربية للبحر الأحمر مثل

(٨٤) الطبقات: نفس المرجع ص ٩٥٢.

(٨٥) الخلوة تطلق في السودان علي مراكز تعليم القرآن الكريم.. فهي في اللغة تفيد الانفراد والوحدة وقد أطلق الصوفية (الخلوة) علي المناجاة و الانقطاع عن الخلق في ذكر وعبادة، وهي بهذا المعني بين طبقات الصوفية معروفة في السودان، فللرجل الصالح خلوة ينفرد فيها بنفسه لذكره ومناجاة ربه، وإطلاقها هنا علي معاهد التعليم أنفرد بها السودان وحده. و (الخلوة) في السودان تقوم مقام (الزاوية) في مصر أو المغرب و المحضرة في بلاد شنقيط، إلا أن السودانيين اطلقوا لفظ الخلوة لما تدل عليه من العزلة والانصراف عن شئون الدنيا ولذاتها. أنظر: عبد العزيز عبد المجيد: التربية السودانية. القاهرة ٧٤٩١ ج١ ص ٨٩ - ٠٠١، راجع: محمد ضيف الله محمد الجعلي الفضلي. الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء في السودان، القاهرة ٠٣٩١.

(٨٦) ((الرشايدة: "معجم قبائل العرب" (٢/ ٤٣٤).

جـدة ن وسـواكن ومصـوع ن وزبيـد اليمـن، والحديـدة، وزيلـع تحـت سـلطة " والي " الحجـاز التركـي [٨٧]، وكان مـن الطبيعـي أن تكـون تبعيـة موانـئ السـودان الشرقـي الإداريـة للحجـاز – في عهـد العثمانيـين – واسـتفاد سـكان تلـك المناطـق مـن الامتيـازات [٨٨] التـي منحهـا العثمانيـون لسـكان الحرمـين قـد شـجع الكثـير مـن القبائـل العربيـة عـلى الهجـرة والاسـتقرار في مناطـق شرق السـودان، ولعـل أشـهر الهجـرات الجماعيـة الحديثـة هجـرة قبيلـة الرشـايدة إلى شرق السـودان [٨٩].

تـكاد المراجـع التاريخيـة تجمـع عـلى أن الكثـير مـن قبائـل الجزيـرة العربيـة أو عـلى الأدق بعـض البطـون منهـا قـد قامـت بهجـرات واسـعة مبـاشرة عـبر البحـر الأحمـر إلى شرق السـودان وخاصـة بعـد قيـام الدعـوة الإسـلامية، ومـن أشـهر هـذه الإنتقالات والهجـرات، انتقـال " جهينـة " مـن منطقـة " ينبـع " مـن الجزيـرة العربيـة إلى شرق السـودان [٩٠] وجهينـة اسـم لقبيلـة عربيـة مشـهورة هـي فـرع مـن قضاعـة، وأهـم وحـدات هـذه المجموعـة القبائـل الآتيـة:

١/ قبيلـة رفاعـة وتمتـد مواطنهـا عـلى جانبـي النيـل الأزرق في السـودان مـن السـفوح الحبشـية إلى المقـرن، والشـماليين منهـم يمارسـون الزراعـة والتجـارة، أمـا الجنوبيـين فالبـداوة سـائدة بينهـم وهـم ينقسـمون إلى قسـمين:

رفاعـة الـشرق (شرقـي النيـل الأزرق) ويطلـق عليهـم نـاس أبـو جـن ورفاعـة الهوى (غربـي النيـل الأزرق) ويطلـق عليهـم نـاس أبـو روف، وقـد حـل بهـم اضطهـاد شـديد في عهـد الخليفـة عبـد اللـه التعايـشي حـين رفـض شـيخ القبيلـة (يوسـف المـرضي أبـو روف) القـدوم إلى أم درمـان لمبايعـة الخليفـة، فقبـض عليـه وأعدمـه في أم درمـان.

٢/ قبيلـة الشـكرية، ويعيشـون في إقليـم البطانـة وينتقلـون بإبلهـم شـمالاً حتـى شـندي وجنوبـاً إلى النيـل الأزرق وأهـم مراكزهـم بلـدة أبـو دليـق جنـوب شرقـي شـندي ورفاعـة عـلى النيـل الأزرق والقضـارف.

(٨٧) محمد صالح ضرار: تاريخ السودان – البحر الأحمر اطعنا البجة، بيروت سنة ٥٦٩١م، ص٨٠١.

(٨٨) كان السـلطان العثمانـي بعـد ضـم الحجـاز وتلقيبـه (حامـي الحرمـين الشريفـين) قـد منـح أهـل الحرمـين عـدة امتيـازات منهـا عـدم تجنيدهـم، وعـدم تحصيـل أي رسـوم أو عوائـد أو ضرائـب سـواء مـن الأهـالي الحضريـين أو أهـل الباديـة ن وجعـل مرتبـات سـنوية لـلأشراف وزعمـاء العشـائر.. الـخ). انظـر: محمـد صالـح ضرار، المرجـع السـابق، ص٥١١ ومـا بعدهـا.

(٨٩) محمد عوض محمد، المرجع السابق ص ٦٥١.

(٩٠) عبد الرحمن حسب الله الحاج: المرجع السابق ص ٣١، محمد عوض محمد: المرجع السابق ص ٩٠٢.

وكان للشكرية شأن كبير أيام الحكم المصري، وكان يتزعم الأسرة الحاكمة للقبيلة الشيخ أحمد أبو سن وكان موضع ثقة الحكومة فعندما قصد مرسي باشا حمدي حكمدار السودان القاهرة لمقابلة الخديوي إسماعيل، اصطحب معه أحمد بك أبو سن وعدداً من كبار السودانيين، فأنعم عليهم الخديوي بالرتب والهدايا وكان نصيب الشيخ أحمد سيفا مذهباً وخمائل ذات قيمة [٩١] ويلاحظ أن موطن هذه المجموعة الأولى لقبائل جهينة (رفاعة والشكرية) في أقاليم النيل الأزرق والبطانة أي في النصف الشرقي من السودان.

أما المجموعة الثانية فيطلق عليها المجموعة الفزارية وتعيش في رقي كردفان ووسطها ومن أشهر قبائلها دار حامد في شمالي الأبيض، ويعملون بالزراعة ورعي الإبل.

وأهم قبائل المجموعة العربية الثانية هي:

البقارة ويطلق هذا اللفظ على شعبة جهينة التي تعيش جنوبي كردفان ودارفور، ويعملون كما يدل اسمهم في رعي البقر. ويمتد إقليم البقارة غرباً حق بحيرة تشاد إلى إقليم واداى والبرنو كما أن حدودهم الجنوبية تتأخم أقاليم الزنوج حيث يعيش الدنكا والفرتيت. وإقليم البقارة واسع جداً في امتداده من الشرق إلى الغرب، فيقع بين النيل الأبيض وبحيرة تشاد في حين أنه محدود في امتداده من الشمال إلى الجنوب فيقع بين خطي عرض ١١ و ١٣ وإن كانت بعض الوحدات تمتد جنوبي هذا الخط كالحمر الرزيقات.

ويتوزع البقارة في كردفان على النحو التالي:

١/ بنو سليم على النيل الأبيض بين الجمع في الشمال والشلك في الجنوب ويليهم غرباً أولاد حميد ويعيشون حول تقلي [٩٢] ثم الحوازمة وينتشرون بين الأبيض ودلنج وتالودي ثم المسيرية غربي دلنج وأخيراً الحمر في الركن الجنوبي الغربي من كردفان شمالي بحر العرب.

٢/ الكبابيش وتملك أعداداً كبيرة من الإبل بالإضافة إلى الضأن أيضاً، وموطنهم محورها وادي الملك. وقد فتك بهم الخليفة عبد الله فتكا ذريعاً لما خرجوا عليه.

(٩١) محمد فؤاد شكري: الحكم المصري في السودان، القاهرة ٧٤٩١م، ص٧٧.

(٩٢) انظر ملحق الخرائط خريطة مملكة تقلي، ص١٦٦.

٣/ الحمـر: ويعيشـون عـلى الأطـراف الغربيـة لكردفـان عـلى حـدود دارفـور وتمتـد أوطانهـم بـين خطـي عـرض ١٢ و ١٤، وقـد عملـوا عـلى نـصرة المهديـة بخـلاف الكبابيـش فانتهـز الحمـر لسـلبهم الشـطر الأعظـم مـن قطعانهـم.

٤/ الكواهلـة: ولا يتـم الحديـث عـن العنـاصر العربيـة في شـمالي السـودان دون الإشـارة إلى مجموعـة الكواهلـة وهـي لا تنتسـب إلى الجعليـين أو الجهنيـين، رغـم أنهـم مـن عـرب شـبه الجزيـرة، وأوطانهـم موزعـة في جهـات متعـددة أخصهـا:

أ / النيـل الأبيـض فيفصلـون بـين قبيلتـين جعليتـين همـا الجموعيـة والجمـع [٩٣] ومنهـم قبيلتـا الحسـانية والحسـينات وهـي تعمـل في الزراعـة ورعـي الإبـل.

ب / قسـم ثـان مـن الكواهلـة اسـتوطن شـمالي كردفـان جنـوب ديـار الكبابيـش ويعملـون في رعـي الإبـل.

ج / أمـا الشـعبة الثالثـة فتعيـش عـلى العطـبرة والنيـل الأزرق ويشـتغل أفرادهـا بالزراعـة ورعـي الإبـل والغنـم والماعـز. والكواهلـة يرجعـون نسـبهم إلى الزبـير بـن العـوام رضي اللـه عنـه كمـا يرجـع الجعليـون نسـبهم إلى العبـاس عـم النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم.

وانتقلـت جماعـات مـن عـرب " هـوازن " عـبر البحـر الأحمـر وتـم اسـتقرارهم في أرض البجـة، وعرفـوا باسـم " الحلانقـة " [٩٤]، وأيضـاً عـرب " الكواهلـة " الذيـن جـاءوا مـن جزيـرة العـرب مبـاشرة عـبر البحـر الأحمـر واسـتقروا في الإقليـم السـاحلي بـين سـواكن وعيـذاب [٩٥]. بالإضافـة إلى بعـض البطـون مـن قبائـل أخـرى لعـل أشـهرها ربيعـة وبـلي ورفاعـة وغيرهـا [٩٦].

وبجانـب هـذا الانتقـال والاتصـال السـلمي للقبائـل العربيـة بمناطـق شرق السـودان، فقـد امتـد النفـوذ السـياسي والسـيطرة الإسـلامية في عهـد الأمويـين إلى موانـئ البحـر الأحمـر عـلى السـاحل الأفريقـي فقـد تـم احتـلال جزائـر " دهلـك " [٩٧] في عهـد

(٩٣) Read some Notes on the Tribes of the white Nile Province , S.N.R. P. ١٤٩ , ١٩٣٠.

(٩٤) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقية، طبعة ثانية، القاهرة ١٩٦٣م، ج١، ص٣١٠.

(٩٥) محمد عوض محمد: نفس المرجع السابق، ص١٤٣.

(٩٦) يوسف فضل حسن: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي (١٤٥٠ – ١٨٢١) طبعة ثالثة، الخرطوم ١٩٨٩م، ص١٠٢.

(٩٧) جزائـر دهلـك تقـع تجـاه الجنـوب الشرقـي مـن سـودان وادي النيـل وهـي مجموعـة أهمهـا (دهـل وحـرات وكبـاري ودركـة ونـوره

الخليفة سليمان بن عبد الملك الأموي (٦٥ – ٨٦هـ / ٦٨٥ – ٧٠٥م) ومما يؤكد استمرار سيطرة الدولة الإسلامية في عهد الأمويين على تلك الجزيرة القاحلة عند مدخل البحر الأحمر في الجنوب الشرقي للسودان أن الخليفة هشام بن عبد الملك الذي أعقب الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قد جعلها منفي لأصحاب التيارات الفكرية المخالفة في عهده [٩٨] وزادت سيطرة الدولة الإسلامية في عهد العباسيين على معم مناطق شرق السودان الداخلية عندما استطاع الخليفة " المأمون بن هارون الرشيد " بحملة " عبد الله بن الجهم " سنة ٨٣١م، ومن بعده " الخليفة المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد " بحملة " محمد بن عبد الله القمي " سنة ٨٥٦م بإخضاع البجة في شرق السودان للحكم الإسلامي، وهي القبائل الحامية التي تعيش بين النيل والبحر الأحمر [٩٩].

ففي الشمال ينتشر بشاريو (أم علي) بين البحر الأحمر وأسوان بينما يتركز بشاريو (أم ناجي) حول العطبرة. ثم هناك بنو عمار [١٠٠] في المرتفعات الواقعة غربي سواكن والمنحدرات التي تليها غرباً، وتمتد أوطانهم حتى العطبرة. في السودان القديم كانت تسود الوثنية جميع أجزائه بأديانها المختلفة ومعبوداتها المتعددة، كالمعبودات الفرعونية في ممالك النوبة آمون وإيزيس وحورس، أما مثل المعبودات المحلية كأبادماك إله الحرب والنصر عند المرويين وسيبوكر، وأرينوسنوفس، أو المعبودات المأخوذة من الطبيعة مثل الأفعى والأشجار، أو مثل عبادة الطوطميات في الجنوب. وكل هذا بلا شك سواء انتقالات القبائل وبطونها من الجزيرة العربية إلى السودان الشرقي والسيطرة الإسلامية على تلك المناطق ساهم في نشر العقيدة الإسلامية [١٠١]، وجعل اللغة العربية هي اللغة الغالبة ولغة التخاطب.

ب / المدخل الشمالي:

عندما فتح المسلمون مصر كان شمال السودان ووسطه يعتنق المسيحية منذ

ونقرة وعرات). انظر: إبراهيم علي طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية الحبشية – المحلة التاريخية المصرية مجلد ٨سنة ٩٥٩١م (ص١ إلى ص٨٦) ص٠٣.

(٩٨) يقال أنه جمع العديد من قادة المعتزلة وأهل العدل والتوحيد ونفاهم إلى هناك. انر محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي طبعة أولى، القاهرة ٣٨٩١م، ص٠١١.

(٩٩) انظر خريطة السودان ولاية البحر الأحمر حيث تسكن قبائل البجة الرئيسية ومواطنها في السودان الشرقي.

(١٠٠) tloH , ehT tsidhaaM etatS ni eht naduS , drofxO ٨٥٩١ , p.٨.

(١٠١) توزيع القبائل في سلطنة دارفور شرقي السودان، انر خريطة السودان لدك.

القرن السادس الميلادي، وقد قامت فيه ممالك مسيحية [١٠٢] لعل أهمها مملكة المقرة وعاصمتها " دنقلا " ومملكة علوة عاصمتها " سوبا " وما أن استتب الأمر لعمرو بن العاص رضي الله عنه بعد فتح مصر سنة ٦٢٤م حتى سير حملة جنوباً لغزو النوبة المسيحية وفتحها باسم الإسلام، ولتأمين حدود مصر الجنوبية، ولكن هذه الحملة قوبلت بمقاومة عنيفة ولم تستطع التوغل جنوباً، كانت فرصة لتسرب بعض العرب إلى داخل السودان.

ونجد أن " عبد الله بن سعد بن أبي السرح " الذي خلف " عمرو بن العاص " في حكم مصر، استطاع بعد قتال شديد مع النوبة المسيحية أن يفرض عليهم معاهدة أشبه بمعاهدة حسن الجوار، أو عدم اعتداء بتعبير حديث تحقق لمصر الإسلامية الاطمئنان على سلامة أراضيها من ناحية الجنوب، واشترطت على النوبة المسيحية حفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية والتجارية [١٠٣]. وتكاد المراجع التاريخية [١٠٤] تجمع على أن الفترة اللاحقة لفتح مصر وسيطرة المسلمين على شمال أفريقيا قد شهدت هجرات عربية واسعة للاستقرار في السودان.

وفي الواقع فقد أصبح تدفق العرب إلى السودان مرتبطاً بالأحداث التاريخية والصراعات السياسية في الدولة الإسلامية، فقد عرف السودان اللاجئين السياسيين من العرب كبني أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة [١٠٥] بدنقلا، وقد أطلق العثمانيون عليها اسم " أرض البرابرة " وتضم هذه المنطقة أجزاء شمال السودان وجنوب الحدود المصرية الحالية. ويعيش السكان فيها على ضفتي النيل ويمثلهم حالياً: السكوت والمحس [١٠٦]، ويطلق عليهم اسم النوبيين، وكانوا في بداية الأمر أهل الزراعة [١٠٧]، يعيشون على

---

(١٠٢) المزيد من التفاصيل عن الممالك المسيحية في السودان قبل إعلان السيطرة الإسلامية، انظر: مصطفى مسعد: امتداد الإسلام والعروبة إلى وادي النيل الأوسط، المجلة التاريخية المصرية، مجلد٨ سنة ٩٥٩١م، ص٩٦ إلى ص٩٩. حسن أحمد محمود: المرجع السابق: المرجع السابق ص٤٠٣ ص٨٢٣.

(١٠٣) مصطفى مسعد المرجع السابق ص١٧، حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ج١، ص٠١٣.

(١٠٤) للمزيد من التفاصيل انظر: حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي، الصحراء القضاة شرق القاهرة الأفريقية وغربها – جامعة الدول العربية، للقاهرة سنة ٧٥٩١م، (ص٠٨ إلى ص٠٩) وأيضا حسن أحمد محمود، المرجع السابق، (ص٠٠٣ – ٣٣٣)، حسب الله محمود أحمد: المرجع السابق (٥٧١ – ٥٨١).

(١٠٥) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ص٦٩، يوسف فضل حسن: المرجع السابق، ص٦٤.

(١٠٦) والحلفاويين والدناقلة أيضاً.

(١٠٧) جلال يحيى: مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر، القاهرة ٧٦٩١م، ص١٤.

الشريط الضيق على جانبي النيل أو في الجزر النهرية – وبعضها عظيم الاتساع نسبياً – وتروي من فيضان النهر بواسطة السواقي النهرية [١٠٨].

وفي عهد الخليفة المعتصم العباسي أصبح يحكم مصر ولاة من الترك المنافسين للعرب، مما أقصى العرب عن مكانتهم المرموقة، وأثار في نفوسهم الامتعاض والتذمر وأخذوا في الهجرة جنوباً إلى السودان، وزاد هذا التدفق في عهد المماليك في مصر، الذي شب صراع بينهم وبين العرب ونظروا إليهم كمتمردين وخارجين عن القانون مما دفع كثير من القبائل العربية للهجرة إلى السودان واختلطوا بالسكان المحليين وانتشر دينهم ولغتهم [١٠٩].

وبالطبع لا يمكن أن يتحقق التغيير والتحول بين مكونات مجتمعية متعددة تعاني التباين [١١٠] الثقافي [١١١] و الإثني [١١٢] ؛ إلا بعد حدث ضخم يحدث هزة عنيفة في أوصال المجتمع، أو شعور عميق تستشعره النفوس ويكون عاملاً وجدانياً مثل الدين أو اللغة، وهذا الأخير هو الذي حدث في الدولة السنارية حيث بدأ الشعور الديني والتوجه الإسلامي يتغلغل وجدانياً في أوصال الأمة ويجري في عروقها، ويتبع الدين عادة اللغة العربية فهي محضن كتابة المعبر عن التشريع الإسلامية، وهي لغة الخطاب والتخاطب، وبالرغم أن الدولة السودانية أن الدولة السودانية كانت في أواسط السودان الجنوبي ذات التباين العرقي غير العربي، والذي يشتمل على وحدات عرقية غير متجانسة من عرب وافدين وقبائل متوطنة كان يتكون منها السودان في ذلك الزمان، كانت هذه القبائل تعيش شبه مستقلة تمثل كل قبيلة أو عنصر بشري وحدة منفردة بخصائصها ومكونها، وما زالت هذه الوحدات تشكل عناصر ثقافة لها لغتها وعاداتها وثقافتها، ولم يحصل بينها اتصال وثيق يوحِّد انتماءها الحضاري والثقافي إلا من خلال اللغة العربية والدين الإسلامي الذي وحد الأمة وصبغها بصبغته من حيث العبادات والعادات والممارسات.

(١٠٨) الشاطر بصيلي: معالم تاريخ سودان وادي النيل القاهرة ٥٥٩١م، ص٢٠٣.

(١٠٩) بوركهارت: رحلات إلى النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوس، القاهرة ٩٥٩١م، ص٧١١.

(١١٠) تباين القوم: أي تهاجروا، انر: محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دار الجيل، بيروت، ٧٨٩١م، ص٢٧.

(١١١) " ثقافي " تعني أنماط السلوك البشري في المعتقدات والعادات والتقاليد في أنماط الحياة، كمفهوم يرمي إلى إبراز الاختلاف في التكوين القومي السوداني وتجسيد النقص في التجانس، وتعبير التباين الأثني والثقافي يستعمل كثيراً في مصطلحنا السياسي والبحوث السكانية.

(١١٢) كلمة " إثني " من cinhtE و تعني عِرقي.

وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي – أي بعد ستة قرون من محاولة الفتح الإسلامي الأول التي انتهت بمعاهدة البقط – تكاثفت الهجرات العربية بكل كبير من مصر ومن الجزيرة العربية نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية، وانفتح المهاجرون العرب على الشعوب السودانية من نوبة وبجة وعنج معايشة واختلاطاً ؛ مستغلين نظام الوراثة والنسب عن طريق الأم لبسط نفوذهم السياسي ؛ فقد صاهرت قبيلة ربيعة البجة في الشرق، وصاهرت فروعها النوبة في أرض المريس، نتج عن هذه المصاهرة الأحفاد المعروفون " ببني كنز " الذين استطاعوا الوصول إلى عرش النوبة ؛ مما كان له أثر كبير في إضعاف الكيان السياسي للنوبة حتى سقطت دولتهم " المقرة " لينفتح الباب على مصراعيه لتوغل العرب – وخاصة قبائل جهينة – إلى حوض وادي النيل الأوسط ومتابعة السير إلى أرض البطانة والجزيرة، وعبر بعضهم النيل إلى كردفان ودارفور، وهناك التقوا بوافد بشري سار محاذياً لشواطئ النيل الغربية إلى دنقلا فكردفان ودارفور [١١٣].

---

(١١٣) يوسف فضل حسن، سلطنة الفونج الإسلامية، دورها في تاريخ سودان وادي النيل، " بحث "، مجلة " دراسات إفريقية "، جامعة إفريقيا العالمية العدد ٣٢، ديسمبر ٩٩٩١م.

المبحث الخامس

التكوين السكاني لمجتمع سنار

المبحث الخامس

التكوين السكاني لمجتمع سنار

من المعلوم أن (سلطنة سنار الإسلامية أو مملكة الفونج أو السلطنة الزرقاء) نشأت في وسط السودان عام ١٥٠٤م، وامتدت قروناً شملت معظم أنحاء السودان، وهو أول اتحاد يتم بين العرب الوافدين (العبدلاب)، والسكان المحليين(الفونج)، كما تعتبر أول مملكة إسلامية قوية ذات شوكة وسلطان مستقر استوعب كل مظاهر الثقافة الإسلامية ؛ هذا بجانب العادات والتقاليد الموروثة، ولعل من ثمرات هذا التحالف هو ظهور ما يسمى بالتمازج العربي الأفريقي الذي أصبح فيما بعد يمثل حلقة من حلقات التواصل والإتصال بين أطراف السودان المختلفة، وقد ترك ذلك التمازج أثراً كبيراً في نفوس السودانيين الأمر الذي ساعد في عملية التحول الاجتماعي والثقافي في ربوع السودان.

فالمجتمع السناري يمثل خليطاً من الإثنيات البشرية المختلفة السحنات، إذ بجوار الفونج (الهمج الأشراف الفونج الجبلاويين همج تورناسي الذين يقطنون منطق (الكيلي)، الانقسنا الكدالو القمز البرون الأدك الكوما الوطاويط (وهم المولدون "عربا – برتا) الراقريف والمشنة، الذين يعود أصلهم إلى إثيوبيا، ويسكنون مع الكماير في منطقة الجرف شمال الروصيرص الشنانة – أو الشناني، كما يوجد العرب القواسمة، والقبائل الزنجية الأخرى، هذا بجانب مهاجري غرب أفريقيا من الفولانيين (فلاتا وهوسا والبرنو والامبررو) [١١٤]. هذا بالإضافة إلى مجموعة عمودية قلي، وهم ينتمون لأصول مختلفة ويكّون بعضهم جماعات لها مميزاتها الاجتماعية والثقافية قل أن نجدها في كثير من انحاء السودان، وهم يتحدثون لغات شتى، منها:

١ – اللغة العربية: وهي اللغة التي يستعملها الكماتير والاشراف والفونج.

٢ – لغة البرتا: وهي من أكثر اللغات شيوعاً في المنطقة ومنها اشنقن او تولدن، هذا بجانب لغة الجبلاويين الذين ينتشرون حول منطقة جبال بني شنقول،

(١١٤) أبو سليم، ١٦٩١م: ٣٤.

ومنطقة الكرمك، وكذلك نجد الهمج (الكيلاوبين) الذين يقطنون جبل الكيلي، والراقدين وغيرها. أما الوطاويط والمشنة فنجدهم يتحدثون العربية والبرتاوية في آن واحد، وتمثل لغة البرتا أخف اللهجات قربا للعربية تليها الجبلاوية ثم لغة الهمج، ولغة الهمج في طريقها إلى الانقراض [١١٥].

أيضاً نجد الانقسنا بلهجاتها المختلفة الشديدة التشابه مع لغة البرتا مثل كلمة جمل نجدها بالبرتاوية والانقسناوية على السواء هو كمبل cambal والنوباوية وهي comblang وهي قريبة من الكلمة الإنجليزية camel وغيرها من الكلمات المتشابهة وتليها لغة القمز بلهجاتها المختلفة بما فيها لغة الكدالو بأنواعها ولغة البرون تشمل لهجات الشركم والجمجم.

ويقول عبد الله الياس من قبيلة الرقاريق أنها قد تكون عصارة لغات البرتا والهمج والانقسا وهي شبيهة بلغة البرون [١١٦]. كما نجد الأدُك والكومسا وهم سكان جبل واحد يقع غرب الكيلي، وهم يعتبرون من أقدم سكان جنوب الفونج الأصليين أمّا سكان الجبال التابعة لعمودية قلي مثل طولق سدا (Si-lak) السيلك الو Alu ومقجة، وتحتوي لغاتها على كلمات تضم العربية والنيلية بحكم الجوار منذ القدم. وبجانب اللغة العربية واللهجات الاشتقائية الأخرى تآلفت الشخصية السنارية ذات الأبعاد الأفروعربية [١١٧]. ومن خلالها انتشرت اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، بفضل المجموعات الوافدة، وجماعات الطرق الصوفية، والتجار، وأخيراً الموظفون من مختلفة القطاعات الحكومية.

المزيج القبلي في سلطنة الفونج وأثره في تماسكها:

عن الحديث عن التماذج القبلي في سلطنة الفونج واثره في تماسكها وبناء الدولة السودانية يتطلب تسليط الضوء بشيء من الدقة على تحليل مقومات الدولة السودانية عبر تاريخها الطويل.

فعند بداية تاريخ السودان توافدت على وادي النيل أعراق أفريقية وبعض

(١١٥) الحاج، ٢٠٠٤م: ٢٣.

(١١٦) الحاج، ٢٠٠٥م: ٨١.

(١١٧) الحاج، ٢٠٠٥م: ٨١.

الشعوب الناطقة باللغات الحامية والكوشية وقد تأثرت هذه المنطقة بتيارات حضارية عامه تسربت جلها من مصر وفي حوض البحر الأبيض المتوسط.

تأثرت المنطقة أيضاً بهجرات بشرية من السهول الواقعة إلى شرق النيل وغربه وإلى الجنوب الغربي أيضاً منه، لم تخلق هذه الهجرات أي آثار حضارية بل ذابت عناصرها وانصهرت وامتزجت بالثقافة المحلية واصطبغت بطابعها، أما الغزو الأكسومي والذي أنهى مملكة مروي فقد كان ذا أثر وقتياً إذ سرعان ما إرتدا الأحباش إلى هضبتهم وظلت حضارة المنطقة باقية.

كانت الهجرات العربية وقوامها البدو ذات اثر عظيم وباقي، فقد حمل المهاجرون العقيدة الإسلامية والثقافة العربية اللتين أديتا إلى اعظم تحول عقدي وثقافي واجتماعي شهدته البلاد وكانت محور السلطة السياسية فيها.

شهد نهر النيل قيام العديد من حضارات والتجمعات البشرية السودانية القديمة، فعلى ضفاف نهر النيل الممتدة من الشلال الأول وحتى الشلال السادس شهد قيام العديد من الحضارات.

ففي فترة العصور الحجرية قبل اكتشاف الزراعة كان المجتمع يقوم على نظام العصبة وكل عصبة مستقلة تماماً عن الأخرى وقد كان أفراد هذا المجتمع يعتمدون على الصيد، وهو مجتمع مترحل غير مستقر وكان كثيراً ما تتجه تلك المجموعات جنوباً نحو محاذاة النيل.

تطور بعد ذلك المجتمع إلى المجتمع القبلي ووحدته القبلية وهو يشبه مجتمع العصبية إلى حد ما من حيث انعدام الفوارق الاجتماعية وانعدام الترتيب الهرمي السياسي وقد تميزت المجتمعات القبلية فيه باستعدادها الطبيعي للوحدة وتكون كيان أكبر.

حدث بعد ذلك ظهور نظام آخر وهو نظام المشيخة وهو يختلف عن النوعين السابقين بوجود نظام رسمي للحكم له القدرة على توحيد كيانات سياسية متعددة تحت لوائيه كما له علاقاته الخارجية وهو نظام يتميز بالاستقرار والكثافة السكانية.[١١٨]

---

(١١٨) د. سامية بشير دفع الله – تاريخ الحضارات السودانية القديمة منذ اقدم العصور وحتى قيام مملكة نبته – دار جامعة السودان المفتوحة للطباعة ١١٠٢م ط٢ ص٢٠١.

شـهد العهـد الكـوشي المتأثـر بالحضاريـة الفروعونيـة نظامـاً ملكيـاً وازدهـاراً للقـرى والمـدن وغيرهـا مـن المظاهـر الحضريـة المتقدمـة متخطيـاً بذلـك كل المراحـل التكوينيـة للقبليـة وقـد انعكسـت ذلـك بصـورة واضحـة في النظـام السـياسي والتطـور الاقتصـادي الـذي حققتـه البـلاد نتيجـة للتوسـع التجـاري خاصـة فيمـا يتعلـق بالتجـارة الخارجيـة، ومـا سـبق ذلـك مـن اسـتقلال للسـهول الممتـدة حتـى منطقـة سـنار ومـا صاحـب ذلـك مـن فتـح العديـد مـن الطـرق البريـة خاصـة طـرق القوافـل التـي تربـط مـروي بالمناطـق الاسـتوائية في جنـوب البـلاد، وأواسـط بـلاد السـودان بمـصر وموانـئ البحـر الأحمـر والتـي مـن أهمهـا (باضـع، عيـذاب، سـواكن).

جـاءت بعـد ذلـك مملكـة مـروي ذات الحضـارة الكوشـية والتـي ازدهـرت وأصبحـت لهـا مكانتهـا الاقتصاديـة والعسـكرية التـي ميزتهـا عـن جميـع الحضـارات التـي سـبقتها، تعـد حضـارة مـروي حضـارة مسـتقلة عـن الحضـارة المصريـة فقـد تميـزت بالحضـارة الإفريقيـة وصـارت حضـارة وطنيـة ذات سـمات مميـزة، تميـزت حضـارة مـروي بالعديـد مـن الصناعـات التـي لـم تكـن موجـودة مـن قبـل مثـل صناعـة الحديـد والتطـور في صناعـة الفخـار، كذلـك ظهـرت بعـض الأعمـال لـم تكـن موجـودة مـن قبـل مثـل الرسـومات عـلى الفخـار والكتابـة باللغـة الهيروغلوفيـة عـلى الفخـار التـي أصبحـت ذات صيـت خارجـي ممـا أدى إلى ازدهـار التجـارة الخارجيـة خاصـة في بـلاد الغـرب.

سـقطت إمبراطوريـة مـروي في منتصـف القـرن الرابـع الميـلادي نتيجـة لعديـد مـن العوامـل لعـل أهمهـا كسـاد التجـارة الخارجيـة وكثـرة الهجمـات القبليـة مـن شرق النيـل وغربـه وأخـيراً الغـزو الأكسـومي، بسـقوط مـروي تجـزأت المملكـة إلى زعامـات صغـيرة ومشـيخات قبليـة.

ظهـر مصطلـح سـودان وادي النيـل بعـد سـقوط إمبراطوريـة مـروي، إذ اشـتمل على كل المناطـق الممتـدة مـن جنـوب مـصر غـلى مـا وراء سـنار وقـد شـهدت تلـك المناطـق ظهـور العديـد مـن الممالـك والتـي كان مـن اهمهـا ممالـك بـلاد النوبـة الثلاثـة، أولى هـذه الممالـك عرفـت بمملكـة نوبانيـا وعاصمتهـا "فـرس" أمـا المملكـة الثانيـة فهـي مملكـة المقـرة وعاصمتهـا "دنقلـة" اتحـدت المملكتـان أي مملكـة نوباتيـا مـع مملكـة

المقرة بعد زمن صغير من نشأتهما وعرفت المملكة الجديدة بـ "النوبة" أما المملكة الثالثة فهي مملكة علوة وعاصمتها "سوبا" امتد النفوذ السياسي لهذه الممالك الثلاثة حتى منطقة سنار. ويتخلل تلك المناطق العديد من طرق القوافل التجارية والتي كان لها دور كبير في الحراك القبلي شهد القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين بعد ذلك تغيرات سياسية واجتماعية كبرى في المنطقة التي شملت مملكتي النوبة وعلوة المسيحيتين. (١١٩)

كان لدخول المسيحية عن طريق مصر أثر فعال في ظهور العديد من الهجرات على تلك المناطق وذلك للتبشير بالدين الجديد فظهرت العديد من المظاهر التي لم تكن موجودة من قبل فقد تم تحويل معظم القلاع والدور إلى هوديه إلى كنائس لممارسة الشعائر الدينية، كان للهجرات العربية التي ترفعت إلى تلك المناطق " منطقة شمال ووسط السودان " اثر كبير في انتشار الإسلام كما لعبت الحملات العسكرية التي بعث بها سلاطين الممالك في الفترة من (١٢٥٠ – ١٥١٧) اثر كبير في إضعاف السياج السياسي لمملكة النوبة المسيحية في الشمال، ومن ثم مهدت الطريق للقبائل العربية المهاجرة والتي من اهمها قبيلة "بني الكنز" من فرع ربيعة التي استطاعت أن تصاهر الأسرة الحاكمة وتعتلي عرش النوبة في سنة ١٣٢٣م.

بانتهاء النفوذ السياسي لمملكة النوبة المسيحية انهار الحاجز المنبع الذي يحول دون توغل العرب في حوض وادي النيل الأوسط ومن ثم تدفقت القبائل العربية في مجموعات كبيرة والتي كان لها دور كبير في دعم النشاط الاقتصادي الرئيسي للبلاد في ذلك الوقت والذي تمثل في الزراعة، وفي احيانا كثيرة كان يلجأ السكان لبعض المناشط الرعوية خاصة في سهول تلك المناطق الغنية بالكلأ.

تعد مملكة سنار من أشهر الممالك الإسلامية التي حكمت في تلك الفترة على المستوى الإقليمي والدولي، تسربت بواكير الدعوة الإسلامية إلى الجزء الشمالي من سودان وادي النيل او السودان الشرقي من أواسط القرن السابع الميلادي على يد التجار المسلمين والمهاجرين العرب، بدأت القبائل العربية في الهجرات نحو الجنوب بصورة منتظمة وقد بلغت ذروتها عند مشاركة القبائل العربية في الحملات العسكرية المملوكية ضد بلاد النوبة المسيحية.

---

(١١٩) د. يوسف فضل حسن – دراسات في تاريخ السودان وافريقيا وبلاد العرب – الجزء الثاني ص٢٥-٣٥.

كان قيام مملكة العبدلاب معلماً هاماً في تاريخ نفوذ السلطة السنارية في سودان وادي النيل فقد بدأ التغيير من الناحية العرقية وذلك لما صحبتها من تفاعل عرقي واختلاط بايولوجي وصار الانتماء إلى أصل العرب هو عقد الانتماء الكامل وأداة التفاعل الاجتماعي او بطاقة الهوية في المجتمع الجديد.

يرجع أصل الفونج إلى عدد من الروايات فهنالك من يرى أنهم من الشلك وهذا الرأي يعود إلى ما ورد عن جيمس بروس السائح الاسكتلندي، وما ورد أيضاً في كتاب "مملكة الفونج في سنار" لصاحبها كروفرد، ولعل تاريخ الفونج يحكي حروبه الكثيرة منها مع الشلك ومع النوبة وقد أحضروا أعداداً كبيرة منهم كسبايا أسكنهم الملك في "قري" بالقرب من سنار ويعتبرون عماد جند مملكة الفونج، ورد أيضاً أن الفونج يرجع أصلهم غلى منطقة فازوغلي وقبا، أما الرواية الثالثة عن أصل الفونج فهي تقول إنهم من البرنو حيث تقول الرواية " عن "صاي عثمان" أحد افراد العائلة المالكة قد أبعد من البرنو عام ١٤٨٦م وذهب بعد ذلك غلى إقليم ملكال وأسس مملكته في حوالي ١٠٠عام حتى فتحها الأتراك. (١٢٠)

يعد سكان الدولة السنارية من أكثر المناطق ازدحاماً بالسكان في القرن الخامس عشر الميلادي، كانت سنار تعد مركزاً تجارياً هاماً وتتردد القوافل التجارية بينها وبين القاهرة ودنقلا وبلاد النوبة والهند وأثيوبيا ودارفور وبرنو وغيرها من الأقطار وهي تأتي في المرتبة الثانية بعد القاهرة على المستوى الإقليمي من حيث ازدحام السكان بها ويقطنها جميع الأجناس بحرية واطمئنان.

استعربت قطاعات كبيرة من الشعوب السودانية خاصاً من بين الحضر واستوعبت البنيات القبلية بسماتها الجديدة الانتماء للأصول العربية عبر النسب وتمثلوا العادات العربية مثل نظام الوراثة عن طريق الأم وليس الأب كما كان معروفاً من قبل، بدلو لغتهم الوطنية بالسان العرب فاصبحت عملية الاستعراب ذات مدلول عرقي تفاعل مع المجموعات الوطنية فأصبحت ذات أصول ربية متأثرة بالمقومات السودانية دماً وعرقاً.

---

(١٢٠) د. نعوم شقير – جغرافية وتاريخ السودان – دار عزه للنشر – السودان – الخرطوم – ص٢٣.

بالرغم من ان الدولة السنارية تختلف في عروبتها عن الممالك المجاورة غلا أن العرب الذين هاجروا إليها اكتسبوا هويتها وتقاليدها فأصبح المنتمي إليها عربي سوداني وإن كان ينتمي إلى قبيلة لها دارها وموطنها وقد صدق من قال إن العروبة عروبة اللسان وهو ما يتفق مع مفهوم العروبة في الإسلام فقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن ابن سلمة بن عبد الرحمن قال: " جاء قيس بن مطاطيه إلى حلقه فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبش فقال: هؤلاء والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء ؟ فقام إليه معاذ فأخذ بتلابيبه حتى أتب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بمقالته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداده حتى دخل المسجد ثم نودي "الصلاة جامعة" فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إن الرب واحد وإن الأب واحد وإن الدين واحد، ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي، فقال معاذ وهو آخذ بتلابيبه: ما تقول في هذا المنافق ؟ فقال: دعه إلى النار فقال: فكان ممن ارتد فقتل في الرده.

المواطنة في التراث الإسلامي تمتعت بالحقوق المتساوية أينما حلو في الدولة الإسلامية وإن شعور الانتماء كان قوياً بينهم، وهو ما كان عليه الحال في المملكة السنارية إن قيام سلطنة الفونج الإسلامية وتطورها العملاق قد أسس على تفاعل طويل المدى عميق الاثر بين ثلاثة روافد هي التيار السوداني والإسلامي والعربي، وكان الإسلام جوهره وإطاراه وهو المحرك الأساسي في تفاعل هذه التيارات من تراكمات عرقية ودينية وثقافية واجتماعية على شعوب وادي النيل فانعكس ذلك بصورة واضحة في بناء الدولة السنارية من الناحية الإدارية والتخطيط الداخلي وبناء الجيش فكان له أثره الواضح في قوة مملكة الفونج وامتداد نفوذها حوالي ٥٠٠عام من الزمان.

المبحث السادس

دور الدولة السنارية في توطين الثقافة العربية والاسلامية

المبحث السادس

دور الدولة السنارية في توطين الثقافة العربية والاسلامية

بعد القضاء على الدولة على الدولة المسيحية على يدي الحلف الفونجي العبدلابي , تم الاعلان رسميا على سيطرة الدين الاسلامي و العنصر العربي على بلاد سودان وادي النيل، واستمرت دولة الفونج يتعاقب عليها الملوك مدة ثلاث قرون وثلث وبجانبها مشيخة العبدلاب الشق الثاني من الحلف، وبعد انتصار المد الاسلامي بدأ الاتصال الثقافي بالبلاد الاسلامية العربية يأخذ مظهرا جديدا، حيث بدأ يقوى دو الدعاة فانتشر العلماء يجوبون انحاء السودان، تارة من مصر أو الحجاز أو بلاد العراق، فيجدوا كل التقدير والاحترام من الملوك والسلاطين، وبرز من ملوك سنار (بادي أبو دقن) الذي ذاع صيته خارج السودان، ومن مآثره اكرامه العلماء وتقريبهم له في بلاده، فيتخذ منهم مستشارين ويغدق عليهم الهدايا و الهبات، كما كان يتحف علماء الأزهر بالهدايا مما جعل بعضهم يمدحه بقصائد طوال[١٢١].

وعلى راس السلاطين الذين حببوا العلماء المكوث في ديارهم الشيخ عجيب المانجلك [١٢٢]خليفة الشيخ عبد الله جماع على مشيخة العبدلاب، فقد رؤى المؤرخون انه كان يقطع الإقطاعات الواسعة للعلماء والصالحين ليحب إليهم الإقامة في دياره، حتى يقوموا بنشر العلم والثقافة العربية، وقد شهدت ثلاثة قرون وثلث هي مدة حكم الفونج هجرات واسعة النطاق من علماء المسلمين إلى بلاد السودان المختلفة فالتف الناس حولهم ياخذون عنهم علوم الدين واداب السلوك وعلوم عربية، وانتشرت المساجد والزوايا والخلاوي كمدارس علم،وتخرجت على يد هؤلاء الرواد اعداد غفيرة

من ابناء السودان شاركوا مع اساتذتهم في نشر العلم والمعرفة (٥٠).

(١٢١) هو الشيخ عجيب الكبير ويلقب بالمانجلك، كان الابن الأكبر لعبد الله جماع، ويقال أن أمه بنت الشيخ حمد أبو دنانة، وقد آلت اليه زعامة مشيخة العبدلاب بعد وفاة والده، وقد حكم ما بين سنة ٠٧٥١ الى ١١٦١م، وقد عرف بشدة التدين ومحبة العلم و العلماء وبناء المساجد، وأسند الى العلماء وظيفة القضاء بين الناس. انظر: طبقات ود ضيف الله، هامش: ١٤.

(١٢٢) شقير ص ٧١٤ وما بعدها، والسودان في قرن ٣-٤.

وقد كان قيام دولة سنار المسلمة هي دارفور في داخل القارة البكر تعويضا للعالم الاسلامي بعد سقوط بقداد في المشرق، والاندلس في المغرب وخروجها من سيطرة المسلمين، كما انها قامت دولة معافاة من سيطرة الاتراك مما شجع العلماء مما شجع العلماء من المشرق والمغرب الى الهجرة اليها، فاتصلت حركة هجرتهم اليها من اول قيامها الى اخره، إذا وجدوا فيها العزاء والامان ودواعي الاسقرار، ووجدوا ذواتهم فيها بما احيطوا به من تقدير وإجلال ارجع إليهم مكانتهم، ذلك مما يؤكد ان تاريخ الثقافة العربية الاسلامية في السودان جزء مهم من تاريخها في العالم العربي الاسلامي .[١٢٣]

وكثرت هجرة طلاب العلم إلى مجالس العلماء داخل السودان وخارجه، وتتابعت قوافلهم الى مصر يقصدون ازهرها الشريف، والى الحرمين الشريفين يقصدون الحج والزيارة ثم مقابلة العلماء وحضور مجالسهم، كما انتشر التصوف واصبح عامة الناس يكتفون باخذ قليل من العلم ثم سلوك الطريقة الصوفية التي عمرت ليالي السودان بالذكر وانشاد المدائح الصوفية .[١٢٤]، وقد زادت هجرات العلماء الى دوله سنار بعد انتشار خبر انتصارها على دولة الاحباش المسيحية سنه ١١٥٧ ه، فقصدت سنار الوفود من مختلف البلاد الاسلامية خاصة الحجاز ومصر وبلاد المغرب، وقد كان النصف الثاني من القرن العاشر الهجري يعتبر قمة الازدهار و النشاط الثقافي والعلمي، فقد جمعت سنار اعدادا غفيرة من الدعاة من العلماء والصوفية[١٢٥].

أثر الهجرات العربية في التكوين الثقافي لسلطنة سنار:

ذكرت بعض الروايات التاريخية أن بداية التغلغل العربي في السودان بدأ بحملة وإلى مصر الذي خلف عمرو بن العاص، وهو عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي جرد حملة في سنة ٦٤١م لفتح بلاد النوبة المسيحية، غير أنَّ هذه الحملة لم تنجح في مسعاها، وقد لجأ الطرفان إلى عقد مصالحة أو معاهدة سميت بمعاهدة "البقط" ولعلها أطول معاهدة في التاريخ إذ ظلت نافذة على

(١٢٣) السودان ص ٣١، ٩١، ٣٢.

(١٢٤) تاريخ وحضارة السودان ص ١٨٢-٢٨٢.

(١٢٥) المصدر السابق، تاريخ وحضارة السودان ص ١٨٢-٢٨٢.

مـدى سـتة قـرون [١٢٦]. ومـن خلالهـا فتحـت هـذه المعاهـدة البـاب لتدفـق العـرب المسـلمين عـلى بـلاد النوبـة في شـمال السـودان، كمـا شـكلت هـذه المعاهـدة بدايـة لمعاهـدة قبائـل البجـة التـي أبرمـت في شرق السـودان عـام ٨٥٥م. ومـن أهـم معالـم الاتفاقيـة بدايـة انتشـار الوجـود العربـي والثقافـة العربيـة في السـودان، كمـا فتحـت الاتفاقيـة البـاب موارباً لتدفقـات أعـداد كبـيرة مـن المهاجريـن بدايـة بقبيلـة ربيعـة التـي كانـت تعمـل عـلى تنقيـب الذهـب في منطقـة وادي العلاقـي في المنطقـة الممتـدة بـين مينـاء عيـذاب وأسـوان وبـلاد النوبـة في شـمال الصحـراء [١٢٧]. ومنـذ ذلـك الحين توافـدت مجموعـة مـن القبائـل العربيـة المتنافسـة عـلى الثـروة والملـك في المنطقـة سـواء بـين البجـا والنوبـة [١٢٨].

ويـرى بعـض مؤرخـي التاريـخ أن السـودان في حـوالي القـرن العـاشر الميـلادي ومـا بعـده حتـى عهـد الممالـك الإسـلامية تشـكل أهـم الفـترات التاريخيـة، إذ وفـد إلى السـودان عـدد مـن القبائـل العربيـة كالقواسـمة وربيعـة وجهينـة، والتـي أخـذت تتقاطـر عـلى سـهول السـودان الواسـعة، ونتيجـة لتلـك الهجـرات المتواليـة بـدأت ثقافـة التعريـب تنتـشر في أنحـاء السـودان المختلفـة عـن طريـق المصاهـرة. وبـزوال الممالـك المسـيحية وتدفـق العـرب جنوباً إلى سـنار أصبحـت اللغـة العربيـة تسـود أنحـاء البـلاد، فاختلطـت باللهجـات المحليـة. ومـن أبـرز ظواهـر هـذه الهجـرات انتشـار الإسـلام في ربـوع السـلطنة. وقـد كان لسـلاطين الفونـج دور كبـير في إفـاد العلمـاء والفقهـاء فكانـت لهـم مكانـة خاصـة في الدولـة [١٢٩].

وعـلى إثرهـا ظهـر عـدد مـن الأدبـاء و الشـعراء في الفضـاء السـناري أسـهموا باجـتراح هويـة توفيقيـة (الأفروعربيـة). ومـن أشـهر الشـعراء الذيـن كتبـوا عـن سـنار الشـاعر محمـد عبـد الحـي، والـذي اسـهم في تبنـي ثقافـة الاندمـاج والتعايـش بـين الثقافـة العربيـة والثقافـات المحليـة الأخـرى، وتعـدّ قصيدتـه " العـودة إلى سـنار " ١٩٦٣م خـير دليـل، وذلـك عندمـا اختـار سـنار نموذجـاً ورمـزاً للهويـة السـودانية (الأفروعربيـة) حيـث يتكـون المجتمـع السـناري مـن اتحـاد مجموعـة القبائـل العربيـة في الشـمال، والقبائـل الزنجيـة في الجنـوب، لتشـكل معـاً سـلطنة

(١٢٦) فضل، ٥٨٩١م: ٩٣.

(١٢٧) سبيكة، ٤٧٩١م: ٢٩.

(١٢٨) ضرار، بدون التاريخ: ٢٣.

(١٢٩) فضل، ٧٨٩١م: ٩٣.

قوية مركزها وسط السودان. ومن الشعراء كذلك: النور عثمان أبكر، ومحمد المكي إبراهيم ؛ وغيرهم.

بينما يرى عدد من المؤرخين وعلماء الأجناس أن علاقات التصاهر بين شعوب المنطقتين فيد بدأت قبل ظهور الإسلام ويرون أن البجا في شرق السودان والماساي في شرق إفريقيا من نتاج تزاوج عربي إفريقي. ويورد الدكتور فرنسيس دينق في كتابه " أفارقة عالميين "

آراء للأنثربولوجي البريطاني المعروف السير إدوارد إيفانس بريتشارد وللقس الباحث في الشأن السوداني جون سبنسر تريمنغهام وسيلغمان تفيد بأن القبائل النيلية في جنوب السودان وهي الدينكا والنوير والشلك تحمل دماء قوقازية وحامية. ويشير فرنسيس دينق في المصدر ذاته غلى عمق تأثر عقائد هذه القبائل بما جاء في الديانات السماوية الثلاث الوافدة من الشرق الأوسط وهي الإسلام والمسيحية واليهودية [١٣٠].

ويرى الباحث أنَّ للهجرات العربية أثر كبير في تكوين البنية الفكرية والثقافية في سلطنة سنار هذا بجانب الثقافة الإفريقية التي هي نتاج تراث ثلاثي يتكون من الإسلام وبالطبع ما حمله من سمات عربية والإرث الإفريقي المحلي (in-digenos)، ثالثاً الميراث الغربي المسيحي الذي جاء به الاستعمار الأوروبي إلى القارة، وهذا يظهر جلياً في اللغات والعادات والتقاليد والموروثات الشعبية وغيرها.

هكذا تكاثر الوجود العربي والإسلامي بسقوط الممالك النوبة المسيحية الثلاث، وعلى منوالها تزايد التصاهر بين العرب والنوبة فانتشرت اللغة العربية والثقافة الإسلامية في ربوع السودان عامة، وفي سلطنة سنار على وجه الخصوص، ويرجع ابن خلدون أن العرب استفادوا من تقاليد النوبة في توريث الملك لأبناء الأخوات فتزوجوا أخوات الملوك حتى انتهى الملك إلى أبناء العرب من النوبيات فزاد ذلك من وتيرة التعريب في البلاد وانتهت عمليات التصاهر بقيام أول دولة عربية إسلامية في السودان عام ١٥٠٤م أي قبل زهاء خمسمائة عام من يومنا هذا.

(١٣٠) الحاج، ٢٠٠٢م: ٤٤.

ارتبط انتشار الإسلام في السودان منذ فجر هجرة الجماعات العربية إلى السودان. فبعد إن حلت هذه القبائل بالسودان بدأ الاختلاط بالسكان المحليين، سواء من العناصر النوبية او البجة أو سكان غرب السودان بدارفور وكردفان. وبعد فتح عمرو بن العاص لمصر عام (٦٥١ – ٦٥٢م) انتهت بعقد اتفاقية البقط [١٣١]. وقد نتجت من تلك الهجرات علاقات تعايش شكلت من خلالها نموذج للدولة السودانية الحديث. فكان التعايش الذي تم بين الثقافة العربية الإسلامية الوافدة والثقافة المحلية بكل موروثاتها القديمة وأوضاعها الحالية أصبح هو المكون الرئيسي لخصائص المجتمع السوداني الذي نراه اليوم. كما ظلت اتفاقية البقط مدة ستة قرون، أحدثت في هذه الفترة الكثير من المؤثرات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية على المنطقة.

هكذا أصبح تأثير الثقافة في مفهوم الدولة الحديثة في السودان واقعاً لا يمكن انكاره، فإذا نظرنا إلى كثير من المعتقدات والتقاليد والأعراف والفنون والمعارف نجدها تنسجم مع الثقافة الإسلامية التي أصبحت جزء من لواء الأمة السودانية الوافدة قديماً وحديثاً، والتي على منوالها تكونت ملامح الشخصية السودانية التي ساهمت في بناء الدولة الحديثة، والتي تضم مختلف الأعراق والمعتقدات. فالثقافة السودانية هي مزيج من الثقافات الوافدة والمحلية عبر القرون.

وعلى ما سبق، فهنالك تدفقات عربية أخرى في بلاد النوبة، فقد بدأت بوصول الخليفة العباسي المعتصم إلى الملك في بغداد، ووصول أحمد بن طولون والياً على مصر ٨٦٨م، كأول وال مسلم غير عربي حيث قام الخليفة المعتصم والذي كانت امه من أصول تركية باستبدال الكتائب العربية في مصر بأخرى من المماليك والأتراك كما قام بقطع الأعطيات التي كانت تصرف من بيت المال على الجند العرب الذين منعوا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب من الاشتغال بغير الجندية حفاظاً على انضباطهم وجاهزيتهم العسكرية فكونوا طبقة حاكمة مميزة في مصر انحصر وجودها في أروقة الحكم وفي الحاميات والحصون العسكرية فظلت على بداوتها وتقاليدها العربية، وصحب قطع الأعطيات تضييق على الوجود العربي في مصر مما زاد من تدفق الهجرات العربية إلى بلاد النوبة في شمال السودان [١٣٢].

(١٣١) مسعد، ٠٦٩١م: ٠٦.

(١٣٢) ماكمايكل، بدون تاريخ: ٠٦١.

المبحث السابع

أدوات التحول المجتمعي في الدولة السنارية

المبحث السابع

أدوات التحول المجتمعي في الدولة السنارية

العرب يغيرون التركيبة السكانية:

لما كان معظم هؤلاء العرب من البدو ؛ فقد ظلوا على بداوتهم وترحالهم، غير أن جماعات غير يسيرة عمدت إلى الاستقرار واختلطت بالسكان المحليين، وقد أدى هذا التوافد العربي الكثيف إلى إسقاط الكيانات السياسية التي كانت موجودة من الممالك المسيحية مثل: " المقرة – علوة "، والتي نشأت على أثرها مشيخات وإمارات عربية.

وهكذا أصفت الهجرات العربية صبغة جديدة على التركيبة السكانية في السودان ؛ فنتيجة لحركة المصاهرة والاختلاط والحركة والتنقل هرت الكيانات القبلية المعروفة لدينا الآن في السودان الشمالي ؛ فالقبائل النوبية في الشمال كالدناقلة والمحس والكنوز والسكوت دخلت في الإسلام ونالت حظاً من الاستعراب، ولكنها كانت محتفظة بلغاتها ولهجتها وعاداتها المتوارثة – كذلك الأمر بالنسبة للقبائل البجاوية في الشرق كالأمرار و الهندندوة و البشارين، وقبائل الزغاوة والمساليت والفور والتاما في الغرب.

أما القبائل المصنفة عربياً مثل الجعليين و المناصير والشكرية والبطاحين والكواهلة، ظلت تحتفظ بلغتها العربية الفصيحة و بكيانات القبلية المتميزة تستشعرها وتعتز بها.

حتمية التغيير:

كانت النتيجة الحتمية لكل هذا التدفق العربي الإسلامي إلى السودان والاستقرار فيه، ليس فقط تغير طبيعة الحياة الاجتماعية هناك، بل تخطاها إلى تغير الأوضاع السياسية أيضاً، فأمام تكاثر الهجرات العربية للنوبة " وحالة الفوضى التي أصبحت عليها المنطقة نتيجة غزوات سلاطين المماليك، فقد استطاع هؤلاء العرب المسلمون بمساعدة من أسلم من النوبيين في القضاء سلمياً على

الدولة المسيحية في دنقلة في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي وأصبح الحكم في شمال السودان إسلامياً [١٣٣].

وبسقوط دولة المقرة في " دنقلا " وسيطرة القبائل العربية على شمال السودان، انفتح الباب على مصراعيه لتلك القبائل فتدفقت جنوباً، وكون هؤلاء العرب بيئاتهم القبلية ومجتمعاتهم وصاروا يتجمعون ويتوحدون، ودولة علوة المسيحية تنتظر مصيرها المحتوم.

وجاء التحول الأكبر لمجتمع السودان في ذلك الحين حين خطأ العرب الخطوة الأخيرة في مستهل القرن السادس عشر الميلادي، عندما تحالف العرب المهاجرون من الشرق والشمال مع الفونج [١٣٤] القادمين من الجنوب أو الغرب وقضوا على دولة " علوة " نهائياً، وانتهت بذلك ممالك السودان المسيحية، وأعلن رسمياً سيطرة الدين الإسلامي بقيام دولة الفونج الإسلامية والقبائل العربية المتحالفة معها في شمال وشرق ووسط السودان في عام ١٥٠٤م [١٣٥].

والحقيقة أن رواد الثقافة الإسلامية في السودان قبل قيام دولة الفونج كان معظمهم من التجار والبدو – وهم ممن تنقصهم المعرفة الدقيقة بالفقه الإسلامي [١٣٦] – فقد اهتموا بنشر الدعوة الإسلامية وكسب المسيحيين والوثنيين مركزين على المبادئ العامة دون التفاصيل. ورغم مشاركة بعض العلماء لهاتين الفئتين إلا أن جهودهم ظلت محدودة، فيروي أن أول من اشتهر من هؤلاء العلماء هو الشيخ " غلام الدين بن عايد اليمني " [١٣٧] في دنقلا، وأيضاً أولاد عون السبعة [١٣٨]، الذين ظهروا في نواحي [١٣٩] النيل الأزرق وتولي أحدهم منصب القضاء.

---

(١٣٣) لمزيد من التفاصيل انظر: حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق (ص١٠٠ – ١٠٤).

(١٣٤) لازال أصل الفونج وموطنهم الأصلي يشكل تحدياً كبيراً للباحثين في تاريخ السودان الحديث، فيرجعون موطنهم وأصلهم العربي إلى واحدة من ثلاث مناطق: بلاد الحبشة، وبلاد البرنو، ومنطقة الشلك على النيل الأيض، انر في ذلك يوسف فضل حسن، المرجع السابق، الفصل الثالث " أصل الفونج وموطنهم " من (ص٩٣ إلى ص٩٥).

(١٣٥) كان المسلمون في السودان قد استطاعوا تأسيس سلطنة إسلامية في غرب السودان حملت اسم " سلطنة دارفور "، وقد تأسست على يد سليمان سولون الأول (١٤٤٠ – ١٤٧٦)م. انظر نعوم شقير المرجع السابق، ج٢، ص١١٣ وما بعدها.

(١٣٦) انظر مخطوطة الفونج للشيخ إبراهيم عبد الدافع و تمت كتابتها عام ١٨٨٤م، ص٦٥٦.

(١٣٧) للمزيد من التفاصيل عن الشيخ " غلام الدين " ورواد الثقافة الإسلامية، انظر د. يحيى محمد إبراهيم: تاريخ التعليم الديني في السودان. طبعة أولى بيروت سنة ١٩٨٧م ص٣٣.

(١٣٨) للمزيد من التفاصيل عن أولاد عون، انر: مصطفى مسعد، المرجع السابق ص٣٩ وما بعدها.

(١٣٩) منطقة أبو حليمة.

العلماء و الطرق الصوفية:

أبرز العلماء الذين هاجروا إلى مصر واسهموا في بث العلوم الإسلامية بين مجتمع الفونج كان محمود العركي حيث تفقه في علوم الدين على المذهب المالكي وعاد ليؤسس في مطلع القرن السادس عشر العديد من الخلاوي في المنطقة بين الخرطوم والكوة (١٤٠).

والشيخ إدريس ود الأرباب من علماء المحس المشهورين الذين هاجروا من الشمال واستقروا في كنف الدولة السنارية وأسس الخلاوي في العيلفون.

وكذلك الشيخ أرباب العقائد الذي أسس مسجد الخرطوم العتيق، ومن بعد هؤلاء قدم الشيخ عبد الرازق ابو قرون من دار الصعيد وبعده بوقت قصير قدمت رابعة بت عبد الرحمن بن جابر وأولادها وكانوا كما ذكرنا سابقاً من الشيوخ والعلماء وجميع هؤلاء كانوا ممن جمع بين التربية الروحية والعلم(١٤١).

وبفضل هؤلاء كانت الصحوة العلمية وبدأت المؤثرات الثقافية الإسلامية تظهر جلياً على مجتمعات الفونج، التي بدأت بهجرة هؤلاء العلماء والاتصال العلمي والديني مما انعكس على تطور أسلوب التعليم الديني في بدايات الجلوس للتعليم فأصبح التعليم يجمع بين تحفيظ القرآن الكريم وتدريس المعارف العلوم الإسلامية والنحو والمنطق.

فقد لعب علماء الدين دوراً فعالاً في تعميق معاني العقيدة الفكرية والإسلامية وتقوية جذور الثقافة الإسلامية في سنار وأصبحت لهم مكانة سامية ونفوذ اجتماعي قوي بين ملوك الفونج فاهتم بهم السلاطين وحببوا لهم الإقامة في السودان، نجد الشيخ عجيب المانجلك (١٥٧٠ – ١٦١١م) في مشيخة العبدلاب كان يقطع الإقطاعات الواسعة للعلماء والصالحين، ويشوقهم للإقامة في مملكته لينشروا الدين والثقافة الإسلامية، كذلك كانوا يمثلون النفوذ والأهمية والهيبة بعد الملوك والأمراء في مجتمع الفونج فقد لعبوا دوراً في الوساطة والشفاعة

---

(١٤٠) احمد الحاج ابو علي، مصدر سابق، ص٩٢.

(١٤١) نفسه، ص٠٣.

لـدى الملـوك والسـلاطين [١٤٢]، تقلـد العلمـاء مناصـب هامـة وذات أثـر دينـي وروحـي كالقـاضي والمفتـي، أصبحـت مملكـة سـنار المركـز العلمـي الـذي تتطلـع إليـه جميـع مناطـق السـودان شرقـاً وغربـاً وكان العلمـاء في مناطـق يرحلـون إليهـم وينتقلـون، كمـا أن سـلطنة دارفـور كانـت تسـتعين بفقهـاء سـنار لنـشر العلـم في بلادهـا.

الهجرات و التواصل و الاتفاقات:

عندمـا فتـح العـرب مـصر في عهـد الخليفـة عمـر بـن الخطـاب رضي اللـه عنـه، امتـد نفـوذ الدولـة الإسـلامية مـن مـصر جنوبـا إلى ممالـك النوبـة المسـيحية في شـمال السـودان [١٤٣]، وتكونـت الصـلات التجاريـة والثقافيـة بـين الدولـة الاسـلامية وتلـك الممالـك، وعندمـا حـاول المسـلمون تأمـين الطـرق التجاريـة أرسـلوا حملـة بقيـادة عقبـة بـن نافـع سـنة ٦٤١م فوقـع صـدام بينـه و بـين النوبـة وقامـت هدنـة، ولكـن في عهـد عبـد اللـه بـن أبـي السـرح الـذي خلـف عمـرو بـن العـاص عـلى مـصر نقـض النوبيـين عهدهـم ممـا اسـتدعى غزوهـم سـنة ٦٥١م، وقـام الصلـح المعـروف بـين الدولـة النوبيـة الكـبرى وعاصمتهـا (دنقـلا) والدولـة الإسـلامية في مـصر [١٤٤] وقـد سـمح ذلـك الحلـف بدخـول المسـلمين متجريـن في حمايـة الدولـة النوبيـة، كمـا أكـد الحلـف الحفـاظ عـلى المسـجد الـذي ابتنـاه المسـلمون في (دنقـلا) ورعايتـه والقيـام بشـئونه كلهـا عـلى حسـاب الدولـة النوبيـة [145]، واسـتمر هـذا الإتفـاق وهـذه الصـلات بـين الدولتـين نحـو سـنة قـرون [١٤٦].

وفي حـوالي سـنة ٧٢٥م أغـار (البجـة) عـلى حـدود الدولـة الإسـلامية بزعامـة ملكهـم (كنـون) ابـن عبـد العزيـز وقـام صلـح بـين بينهـم وبـين الدولـة الإسـلامية في مـصر عـلى يـد عبـد اللـه بـن الجهـم أثنـاء حكـم الدولـة العباسـية، فسـمح ذلـك الصلـح للمسـلمين أن يدخلـو بـلاد البجـة مـع ضمـان أمنهـم سـواء أكانـوا عابريـن أم

(١٤٢) السـير تومـاس ارنولـد: الدعـوة إلى الإسـلام، ترجمـة الدكتـور حسـن إبراهيـم حسـن وعبـد المجيـد عابديـن وإسـماعيل النخـراوي، القاهـرة ٧٣٩١م، ص٧٧٢.

(١٤٣) كانت الدولتين النوبيتين متجاورين وبينهما حدود معلومة

(١٤٤) شقير ص٧٤٣ ومخطوطة كاتب الشونة تحقيق شاطر بصيلي ص٥٢١ ملحق وتطور نظام الحكم في السودان ص١٩.

(١٤٥) وكان هـذا المسـجد يجتمـع فيـه المسـلمون النوبـة الذيـن دخلـوا الإسـلام منـذ محاولـة عمـرو بـن العـاص غـزو النوبـة واسـتمر دخلوهـم الإسـلام عـن طريـق التجـار المسـلمين الوافديـن مـن مـصر.

(١٤٦) تاريخ وحضارة السودان ص٠٨٤ وما بعدها – والسودان في قرن ص٩٢-٠٣.

مقيمـين، كمـا أمـن على سـلامة المسـاجد التـي ابتناهـا المسـلمون في بـلاد البجـة[١٤٧]،، وأن يدخـل عمـال الدولـة الإسـلامية لقبـض الصدقـات ممـن أسـلم مـن البجـة [١٤٨].

ومـن هـذه النقـاط التـي تضمنهـا العهـدان الموقعـان بـين الدولـة الإسـلامية في مـصر والدولتـين (النوبيـة) (والبجاويـة) في السـودان يتضـح لنـا أن الإسـلام قـد شـق طريقـه إلى تلـك الأراضي قبـل هـذه الإتفاقـات والعهـود، حيـث نفـر غـير قليـل مـن المسـلمين في الدولتـين، وبنـوا مسـاجد للعبـادة والتعليـم حيـث أسـلم بعـض مـن النوبـة والبجـة وصـار ولاؤهـم الدينـي تابعـاً للدولـة الإسـلامية التـي عاهـدت عـلى تأمينهـم داخـل هاتـين الدولتـين [١٤٩] ، وقـد حمـل الإسـلام إليهـم أولئـك الذيـن هاجـروا مـن بـلاد الإسـلام، وهـذا ليـس غريبـاً إذا علمنـا أن قبيلتـي (بـلى) (وجهينـة) قـد دخلتـا بـلاد بقصـد تصفيـة الذهـب مـن معادنهـا [١٥٠]، كمـا أنـه مـن المعـروف أنـه قـد عـبر فريـق مـن (هـوازن) البحـر الأحمـر إلى السـودان وكونـوا قبيلـة (الحلنقـة) المعـروف الآن، وجابـوا بـلاد البجـة إلى إلى بـلاد التـاكا [١٥١] (كسـلا)، وفي دفعـات أخـرى نـرى أن بنـي أميـة عندمـا أنهـار ملكهـم وأعمـل العباسـيون فيهم السـيف هاجـرت جماعـات منهـم هاربـة تطلـب الأمـان، حتـى وصلـوا منطقـة شـمال السـودان، واسـتقرت مجموعـة منهـم جنـوب مدينـة أبوحمـد بولايـة نهـر النيـل الحاليـة [١٥٢].

كمـا اسـتقروا في بـلاد البجـة [١٥٣]، وقـد دلـت الكشـوفات الأثريـة عـلى وجـود شـواهد قبـور إسـلامية وعـلى وجـود مسـاجد في (سـنكات)، ممـا يـدل عـلى الوجـود الإسـلامي السـابق [١٥٤] كمـا أن بعـض الروايـات التاريخيـة تذكـر بقـاء بعـض مـن كانـوا في

(١٤٧) شقير ص٢٧٣ وما بعدها – وتاريخ الثقافة العربية في السودان د.عابدين ص٩٣ وتاريخ وحضارة السودان للبصيلي ص٥٤١، ١٨٤.

(١٤٨) لخطط للمقريزي ج/١/٧١٣.

(١٤٩) فقد كانت دولة النوبة آنذاك مسيحية أما دولة البجة فكانت تغلب عليها الوثنية.

(١٥٠) مروج الذهب للمسعودي، ومخطوطه كاتب الشونة تحقيق شاطر بصيلي ٦٢١.

(١٥١) تاريخ وحضارة السودان شاطر بصيلي ٧٤١ – والسودان عبر القرون ٠٣-٢٣.

(١٥٢) اسـتقرت قبيلـة اليزيـد الأمويـة في منطقـة وعـرة جـدا حيـث المضبـق الصخـري المعـروف بمنطقـة الكربـة قـرب الشريـك، فهـم عربـا خلصـا مـن سـماتهم الشـخصية و الشـكلية، كانـوا في السـابق، ينعتهـم أهـل المنطقـة بقتلـة الحسـين بـن عـلي رضي اللـه عنهمـا.

(١٥٣) نعـوم شـقير ص٩٤٣ ومـا بعدهـا، وتطـور نظـام الحكـم في السـودان منـذ أقـدم العصـور ص١٩-٢٩، وتاريـخ الثقافـة العربيـة في السـودان ص١٣-٣٣ للدكتـور عبـد المجيـد عابديـن ، ط الأولى ٩٦٩١م وتطـور نظـام الحكـم في السـودان منـذ أقـدم العصـور للدكتـور محمـد عبـد الحميـد متـولي ٤٩-٦٩.

(١٥٤) تاريخ وحضارة السودان ٦١٢، ومخطوطة كاتب الشونة هامش٦.

حملة بن الجهم في أرض البجة [١٥٥] وهناك احتمال كبير في أن هناك قبائل عربية نزحت من صعيد مصر تحت ضغط قبائل عربية أخرى أقوى منه واتجهت جنوباً عبر الصحراء الشرقية، وبذلك صارت بلاد البجة مسرحاً لتحرك واستقرار قبائل عربية عديدة جاءت لأسباب وأغراض مختلفة، حاملة معها اللغة والدين بكل ما يحملانه من ثقافة وعقيدة ونظام اجتماعي [١٥٦].

واستمرت الصلات بين الدولة العباسية ومملكة النوبة ودية لدرجة جعلت ملك النوبة يبعث ابنه (جورج) إلى بلاط العباسيين في بغداد، وقد بهرته الحضارة والقوة الإسلامية مما جعله يعدل عن المقاومة ويقبل باستمرار الاتفاق السابق، ويسلم بوجود الحاميات العسكرية العباسية على حدود دولته [١٥٧].

وفي عهد الخليفة المتوكل أغار البجة على مناجم الذهب (بالعلاقي) وهي تابعة للدولة الإسلامية – فقاد محمد بن عبد الله بن القمي جيشاً كبيراً لمحاربتهم سنة ٨٥٤م. وعند مروره بمنطقة المناجم تبعته جماعات من ربيعة ومضر واليمن ، فانهزم البجة أمام هذا الجيش العربي المسلم، وقام حلف ضمن للإسلام والمسلمين في بلاد البجة حقوقاً أكثر، وزار بسببه ملك البجة الخليفة العباسي في بلاطه في بغداد، فكانت نتيجة ذلك أن تدفق العرب المسلمون إلى معادن الذهب في أرض البجة، واقتنع البجة بمجاورتهم ومصاهرتهم [١٥٨]، وزاد عدد من اعتنق الإسلام من شعب البجة فأصبح للدولة الإسلامية نفوذ قوي في تلك المناطق مما زاد تدفق هجرات عرب البادية من مصر نحو بلاد البجة [١٥٩].

وقد أدي تذمر العرب علي الخليفة المعتصم في اعتماده على الأعاجم إلى الضغط عليهم وعلى زعمائهم، فأدى ذلك بدوره إلى المزيد من الهجرات العربية نحو الجنوب إلى بلاد النوبة والبجة، حيث، حيث يجدون الأمن والحرية في بلاد تناسب طبيعتهم الرعوية [١٦٠].

(١٥٥) الخطط للمقويزي جـ١ ص٧١٣، ومخطوطة كاتب الشونة ص٦٢١، تحقيق شاطر بصيلي.

(١٥٦) تاريخ وحضارة السودان ص٧٥١ وما بعدها، والسودان عبر القرون ص٢٣ وما بعدها.

(١٥٧) السودان عبر القرون ص٣٣-٤٣.

(١٥٨) الخطط للمقريزي جـ ١ ص٧١٣، ومخطوطه كاتب الشونة ص ٦٢١ ملحق ثان، وتاريخ وحضارة السودان ٠٥١-٤٥١.

(١٥٩) الخطط للمقريزي جـ١ ص٥١٣ وشقير ص٤٧٣ وتطور نظام الحكم في السودان من أقدم العصور ص٣٩.

(١٦٠) مخطوطة كاتب الشونة ص٧٣١، والسودان في قرن ص٦١-٧١، وتطور نظام الحكم في السودان من أقدم العصور.

و كثير من قبائل عرب السودان انحدروا من الصعيد المصري زحفا مع الكلأ و المرعى، وبسبب الحروب و ضيق الأراضي المصرية، و في عهد طولون و المماليك هاجروا من مصر الى السودان و البعض منهم الى ليبيا، و لكن حتى الآن مع ان الكثير منهم هاجروا من مصر إلى السودان فلازالت توجد بقايا من ذات القبائل التي قدمت للسودان تعيش في الصعيد المصري ومناطق أخرى غير الصعيد، و فضلا عن القبائل العربية الكثيرة(١٦١) التي انحدرت من الشمال، نجد أن هنالك كثير من الأفخاذ و البيوتات ذات الأصول المصرية تقيم في مناطق من السودان خاصة في المدن الكبرى مثل مدينة الخرطوم بحري و شرق النيل و أم دمان و الأبيض و مروي بالشمالية.

البحث عن الذهب:

وفي أول عهد الدولة الطولونية في مصر جهز جيش سنة ٨٦٨م لغزو بلاد النوبة والبجة على رأسه عبد الله بن عبد الحميد العمري، وكان من أهداف تلك الحملة الإستيلاء على مناجم الذهب الموجودة والبحث عن أخرى، فتوغل ذلك الجيش إلى منطقة (المناصير) و (الرباطاب) واشترك كثير من القبائل العربية فذي هذا الجيش خاصة ربيعة وجهينة، وأقيمت قواعد كثيرة لذلك الجيش على النهر، واكتشفت مناجم جديدة للتبر (١٦٢).

والعمري هذا كان رجلا ذا شخصية إسلامية فذة، قصد إلى نشر الإسلام والثقافة العربية، وزاد من عدد القبائل والجماعات العربية التي استقرت في المنطقتين، ومن هذا أخذت الحضارة العربية الإسلامية القومية تتغلب على الحضارة المحلية، وشاع الدين الإسلامي بين المسيحيين والوثنيين معا، وشاعت اللغة العربية ومع احتفاظ النوبة والبجة بلهجتهم الخاصة (١٦٣)، وقد أدت هذه المجهودات إلى قيام دولة إسلامية صغيرة في بلاد البجة، وذكرت المصادر التاريخية أن أميرها كان يدعي بأبي مروان بشر بن إسحق من ربيعة، وكان يتحكم في جيش قوامه ثلاثة آلاف من ربيعة ومن خالفهم من العرب، وثلاثين ألفاً من (الحداربة) الذين يرجع أصلهم إلى حضرموت، وقد قام إلى جانب

(١٦١) ومن أشهر تلك القبائل قبيلة المناصير و العبابدة.

(١٦٢) شقير ص٥٣٣ و ٦٧٣ السوان عبر القرون ص٥٣ – وتاريخ حضارة السودان ص٣٦١ وما بعدها.

(١٦٣) شقير ص٧٧٣و ما بعدها السودان عبر القرون ص٦٣ – وتاريخ حضارة السودان ص٦٦٤ وما بعدها.

تلك الدولة الإسلامية مجتمع مسلم مستقل كونته جماعات إسلامية في جزيرة سواكن تعرف (بالخاسة) [١٦٤].

وفي عهد الإخشيديين في مصر كانت الصلات قائمة بين الدولة النوبية في الجنوب والإخشيدية في مصر، ولكن تعكرت تلك الصلات مما جعل الإخشيديين يغزون بلاد النوبة عدة مرات [١٦٥]. وعندما استولى الفاطميون على مصر سنة ٩٦٩م علموا بعصيان الدولة النوبية وامتناعها عن دفع (البقط) [١٦٦]، فطالبوا ملك النوبة بدفع الجزية، وعرف ملك النوبة قوة الفاطميين فاستجاب لطلبهم [١٦٧]، مما ساعد على استقرار العلاقات الودية بين الدولتين، وتوغل المسلمون في ممالك النوبة على شريط يحاذي النيل وداخل الصحراء حتى مملكة (علوة) [١٦٨]. وسر الدولة الفاطمية كثرة الإسلام في بلاد النوبة بإسلام النوبيين أنفسهم[١٦٩].

وفي عهد الفاطميين اتسعت الدولة الإسلامية التي أنشأنها ربيعة في أرض البجة، واعترفت الدولة الفاطمية بها وتعاونت معها، وقد أطلق الحاكم بأمر الله لقب (كنز الدولة) على أمير دولة ربيعة سنة ١٠٠٦م تكريما له، وصار كل زعيم منهم يحمل هذا اللقب حتى عرفت القبيلة فيما بعد ب(بني كنز) وهم الكنوز الحاليون، واستخدمت الدولة الفاطمية السودانيين في جيشها، وزاد عددهم في عهد المستنصر حتى بلغ خمسين الفا حيث كانت أمة تشجع ذلك، فقد كانت سودانية الأصل، وقد حمل أولئك الجنود الإسلام واللغة عند رجوعهم إلى أهليهم [١٧٠].

وفي عهد الأيوبيين كانت العلاقات بين الدولة النوبية وبينهم تسوء وتتحسن ذلك لأن الفاطميين – غرماءهم – كانت صلاتهم بالعناصر السودانية طيبة إلى حد بعيد، فقد اتخذوا منهم جيشا جرارا، مما اضطر الأيوبيين إلى قتالهم

---

(١٦٤) شقير ص٧٧٣ وما بعدها السودان عبر القرون ص٤٠ – وتاريخ حضارة السودان ص٣٥ وما بعدها.

(١٦٥) هو الاسم الذي ذكرته المصار العربية للجزية التي تدفعها مملكة النوبة سنويا للدولة الإسلامية في مصر منذ عهد عبد الله بن أبي سرح.

(١٦٦) السودان عبر القرون ص ٧٣-٨٣.

(١٦٧) عاصمتها سوبا شرق الخرطوم.

(١٦٨) نفسه ص ٧٣ – ومخطوطة كاتب الشونة.

(١٦٩) السودان عبر القرون ص٨٣ – وتاريخ وحضارة السودان ص٧٦١ وما بعدها.

(١٧٠) السودان عبر القرون ص٨٣-٩٣ وتاريخ وحضارة السودان ص٨٨٤.

بوصفهم فصائل قوية من جيش الفاطميين [171] لكن في كلتا الحالتين استمر نمو الإسلام والثقافة العربية وتدفق العناصر العربية إلى بلاد النوبة [١٧٢] وعندما دخل المغول بغداد سنة ١٢٥٩م وخربوها أدى ذلك إلى هجرة بعض قبائل العرب وساداتها إلا بلاد السودان، حيث استقروا هناك، وزاد تدفق العناصر العربية في عهد المماليك إلى بلاد النوبة والبجة، ذلك أن استيلاء المماليك على مصر قلل من شأن العناصر العربية فيها، إذ شعروا بأنهم أصبحوا رعايا وليس حكاما كما كانوا، فلم يعد لهم شأن في الدولة، فشب الصراع بين العناصر العربية والحكام غير العرب الذين أصبحوا ينظرون إلى العرب نظرة المتمرد، فزاد الضغط عليهم مما زاد تدفقهم تباعا بكلقبائلهم إلى سهول السودان الشمالي، واستقروا هناك واختلطوا بالسكان [١٧٣] وقد واكب ذلك اعتلاء أول أمير مسلم عرش النوبة السفلي في المقرة (دنقلا) وهو عبد الله بن برشمو سنة ١٣١٦م، وهو سليل أمراء مسلمين من بني كنز الدولة وابن اخت الملك النوبي المسيحي، فهو أحق من غيره بالملك – حسب العرف – ومن ميزاته أنه كان رجلا متفقها في دينه، ولم يلبس التاج على رأسه لأنه يحمل الصليب [١٧٤] وكلما رجع النوبيون من مصر كثر الإسلام في بلادهم بتأثيرهم على أهليهم، وبذلك حوصرت المسيحية في الشمال وحوصرت من جهة الشرق بالدولة الإسلامية الكنزية والقبائل العربية المنتشرة هناك، والتي كانت تؤلف مملكات ومشيخات صغيرة [١٧٥] كما أن موانئ البحر الأحمر كانت تابعة للدولة الإسلامية في مصر فسدت على المسيحية المنافذ، فبعدت عن أصولها في كنائس مصر والشام وروما [١٧٦].

التسامح وقبول الآخر:

وباستياء بني كنز الدولة على مملكة النوبة السفلي (دنقلا) عمرت بلاد النوبة

---

(١٧١) بلاد النوبة من جنوب اسوان شمالا إلى سوبا جنوبا وكانت تكون دولة مسيحية واحدة.

(١٧٢) شقير ٦٥٣ – دور الأزهر في السودان ص٦١ وتطور نظام الحكم في السودان من أقدم العصور ص٣٩-٩٩.

(١٧٣) شقير جـ١ ٨٥٣ – تاريخ وحضارة السودان ص٩٦١.

(١٧٤) تاريخ وحضارة السودان ص٣٧١ وما بعدها – ومخطوطة كاتب الشونة ص٨٢١.

(١٧٥) السودان في قرن ص٠٥ وما بعدها.

(١٧٦) شقير ص٩٥٣ والسودان عبر القرون ص٢٥ وما بعدها – ومخطوطة كاتب الشونة ص٧٢١ ولازالت بعض القبائل تحتفظ بأسمائها مثل كنانة، وسليم، وفزارة، وجهينة، وكواهلة، ورفاعة، ونائل، وبني هلبة، وهلال، وذبيان، التي تحولت إلى (ضباينة) وبني يشكر، وبني عبس، وغيرهم كثير.

بكثير من القبائل العربية، وثارت النعرات القبلية وتميزت عناصرها القديمة، حيث قادها الزعماء واستثمروها في إنشاء إمارات صغيرة مستقلة، وصارت وحدة القبيلة تطغى على رابطة الدين والاقليم.

وتسربت قبائل عربية أخرى إلى أواسط السودان وغربة بكميات كبيرة أمثال جهينة وفزارة [١٧٧] واتجهت تلك القبائل العربية إلى أواسط السودان وغربة حيث طبيعة الأرض الرعوية والزراعية والأمطار الغزيرة، وهي أفسح لهم من أرض دنقلة الجرداء عدا الشريط المحازي للنيل [١٧٨] وقد شجعهم على ذلك أيضا أن مسيحية دولة علوة في (سوبا) أخف من مسيحية دولة المقرة في (دنقلا) حيث كان شعب سوبا المسيحي متسامحا في تعامله مع العرب المسلمين، فاندمج في العرب اندماج معايشة ومصاهرة، كل ذلك مما ساعد العرب على تكوين مجتمعات صغيرة، لكنها كانت قوية تكاتفت جميعا فيما بعد في حلف قامت على أساسه الدولة الإسلامية في سنار في القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري يرأسه عمارة دنقس [١٧٩].

اتصلت هجرات العلماء إلى السودان من قبل قيام سنار لكن نشطت بعد قيامها واتخذت مظاهر الكثرة في التوالي، وقد ذكرنا فيما سبق أسماء بعض من هاجروا إلى السودان من العلماء قبل قيام سنار، وهنا نبسط أمثلة لصور تلك الهجرات بعد قيام سنار مع ذكر بعض الآثار التي أحدثتها.

تذكر الروايات التاريخية أن الشيخ محمد المصري القناوى من علماء الأزهر (من مدينة أدفو) هاجر إلى السودان في القرن العاشر الهجري وتنقل بين مدن السودان، واستقر به المقام في مدينة بربر التي كانت تعرف بـ (المخيرف) وكان دافعه إلى تلك الهجرة نشر العلم بين المسلمين ابتغاء لوجه الله فبادر بتشييد مسجد بـ (المخيرف) فأقبل عليه طلاب العلم يزفون من كل حدل وصوب، كما عمل بالقضاء، قد عمر طويلا، وترك لتلاميذه من مؤلفاته شرح العقيدة السنوسية الصغرى، وشرح العشماوية، ورسالة في البسملة، وشرحا علي

(١٧٧) مخطوطة كاتب الشونة ص٩٢١-٠٣١.

(١٧٨) السودان عبر القرون ص٤٥-٨٥ وتاريخ وحضارة السودان ٣٧١ ومابعدها.

(١٧٩) تاريخ الثقافة العربية في السودان ص٩٢-٥٤.

الشمسـية في علـم المنطـق [١٨٠] ، ومـن تلاميـذه الشـيخ محمـد بـن عيسـى بـن صالـح المعـروف بسـوار الذهـب الـذي قـرأ عليـه العقائـد والمنطـق وعلـوم القـرآن وأصبـح فيمـا بعـد مـن علمـاء السـودان [١٨١]، ومـن تلاميـذه أيضـا حفيـده الشـيخ المضـوي، ومـن تلاميـذه الشـيخ خوجـلي عبـد الرحمـن أبـو الجـاز المعـروف (بـأزرق توتـي)، ومنهـم أيضـا أولاد سـوار الذهـب الذيـن قدمـوا عليـه مـن دنقـلا، ثـم رجعـوا إلى منطقتهـم يعلمـون النـاس [١٨٢].

دور علماء الأزهر:

كمـا هاجـر إلى السـودان مـن علمـاء الأزهـر الشـيخ محمـد يـن عـلي بـن قـرم الكيميائـي حـوالي سـنة ٩٧٠هـ/ ١٥٦٣م وزار أربجـي [١٨٣] في منطقـة الجزيـرة وكانـت حـاضرة علـم وسـلطان، وزار أيضـا سـنار عاصمـة الدولـة الاسـلامية، واسـتقر بـه المقـام في بربـر ؛ ويقـال أنـه أول مـن درس المذهـب الشـافعي في السـودان [١٨٤]، وقـد تتلمـذ عليـه خلـق كثـير صـاروا مـن أجلـة العلمـاء في السـودان في زمانهـم ؛ منهـم قـاضي العدالـة دشـين، والشـيخ ابراهيـم العركـي و الشـيخ ابراهيـم الفـرضي [١٨٥].

ومـن علمـاء الأزهـر الذيـن هاجـروا إلى السـودان واسـتقروا فيـه الشـيخ عيسـى بـن بشـارة الأنصـاري، أصلـه مـن الحجـاز خزرجـي النسـبة [١٨٦]، وعنـد وصولـه إلى السـودان تـزوج بنـت ملـك الجموعيـة، وبنـي مسـجدا في قريـة كترانـج، وكـون أسرة كبـير اشـتهر أهلهـا بالعلـم، وقـد كان هـو وأبنـاؤه مـن بعـده موئـلا لطـلاب العلـم، وتخـرج كثـير مـن أبنائـه وأحفـاده في الأزهـر بعـد أن تلقـوا عليـه أولا مبـادئ العلـوم، وكان الشـيخ عيسـى هـذا بارعـا في المذهبـين المالكـي والشـافعي، ونابغـة في علـوم المنقـول والمعقـول [١٨٧]، وقـد تفـرع عـن مسـجده هـذا الـذي بنـاه في كترانـج – وكان معهـد علـم جامعـا – مسـجدان آخـران، أحدهمـا أقامـه حفيـده إبراهيـم بـن

---

(١٨٠) مخطوطة كاتب الشونة ص ١١-٤١.

(١٨١) مخطوطة كاتب الشونة ص ٤١-٦١.

(١٨٢) طبقات ود ضيف الله ص٩٦١.

(١٨٣) أسست قبل قيام سنار ب٠٣ سنة.. انظر: مخطوطة كاتب الشونة ص٤.

(١٨٤) انظر: كاتب الشونة ص: ١٣.

(١٨٥) المصدر السابق ص: ٥٦١

(١٨٦) مخطوطة كاتب الشونة ص٦.

(١٨٧) طبقات ود ضيف ص٩٦١.

أحمد عيسى الأنصاري في قرية (مسيد ود عيسى) والآخر أقامه حفيده الشيخ محمد أحمد البدوي في قرية المسعودية (١٨٨).

وقد أحصى المؤرخون للحركة العلمية أربعين عالما من خلفه خدموا العلم منذ مملكة سنار حتى قام الحكم الثنائي في السودان (١٨٩)، وقد تخرج في تلك المساجد كثير من علماء السودان البارزين الذين خدموا العلم، منهم من ولي القضاء، ومنهم الشيخ أبه بن الشيخ أحمد وحفيده الشيخ إبراهيم، والشيخ محمد بدر المعروف بالعبيد منشئ قرية (أم ضوا بان)، ومنهم الشيخ بدوي أبو صفية البديري المدفون في مدينة الأبيض، وهو صاحب الأثر المحمود في نشر الإسلام في جبال النوبة في الغرب، فكان يأتي بالنوبة من جبالهم ويعلمهم القرآن والضروري من الفقه والتوحيد ثم يوجههم إلى أهلهم لنشر الإسلام بينهم، ومنهم العلامة المؤرخ إبراهيم عبد الدافع أول من ولي الإفتاء في العهد التركي، ومنهم الفقيه الكاتب حسن ود عماري من علماء دارفور، ومنهم الفقيه محمد الجبيل (١٩٠)، ومنهم العلامة الأديب الصوفي صاحب الحكم الشيخ فرح ود تكتوك في سنار، ومنهم أيضا الإمام محمد أحمد المهدي قائد الثورة المهدية بالسودان، فقد تلقى في مساجد ود عيسى بعض علوم الدين واللغة فدرس رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه وجوهرة التوحيد، ودرس من كتب اللغة (قطر الندى وبل الصدى، وشذور الذهب) لابن هاشم الأنصاري، ثم ذهب إلى استاذه الشيخ محمد الخير في بربر ليواصل تعليمه (١٩١).

ومن علماء الأزهر الذين هاجروا إلى السودان الشيخ عمر التونسي الذي هاجر إلى دولة سنار أولاً ومكث فيها مدة طويلة ثم ذهب إلى دارفور ومنهم ابنه محمد بن عمر التونسي الذي قضى في دارفور سبع سنوات، وقد سجل رحلته تلك ووصف البلاد وشارات ملكها في زمن السلطان عبد الرحمن الرشيد وولده محمد الفضل (١٩٢).

---

(١٨٨) ولد بالمدينة المنورة في أوائل القرن العاشر الهجري وحفظ فيها القرآن الكريم ثم سافر إلى مصر لطلب العلم والتفقه في الأزهر الشريف وهو جد أسرة أولاد عيسى المشهورة في السودان بالعلم.

(١٨٩) قرية كترانج وأثرها العلمي على السودان عز الدين الأمين ودور الأزهر في السودان ص٨٥.

(١٩٠) دور الأزهر في السودان ص٨٥.

(١٩١) دور الأزهر في السودان ص٨٥.

(١٩٢) نفسه ص٠٦.

وكان قد هاجر من بغداد إلى السودان في النصف الثاني للقرن العاشر الهجري العالم الصوفي تاج الدين البهاري ونشر الطريقة القادرية في دولة سنار، كما قدم من المغرب الشيخ التلمساني ونشر طريقة القوم (١٩٣)، وكان قد سبقه الشريف حمد أبو دنانة الذي جاء من المغرب أيضا ونشر الطريقة الشاذلية، كما نشر علماء آخرون جاءوا من المغرب الطريقة التجانية والأحمدية.

ومن دراستنا للحركة العلمية والحركة الصوفية في السودان اتضح لنا أن أثر العلماء المغربة والعراقيين والحجازيين كان أثرا صوفيا أكثر منه علميا، وأن أثر علماء الأزهر بكل أجناسهم كان علميا أكثر منه صوفيا ومن هذا الخليط المتوازن إلى حد ما تكونت حصيلة علماء السودان منذ سنار إلى قيام الثورة المهدية.

العلماء السودانيين الذين سافروا للحجاز:

ويدخر كتاب طبقات " ود ضيف الله " (١٩٤) بالعديد من العلماء السودانيين الذين ذهبوا إلى الحجاز سواء للحج أو للمجاورة والدراسة والتعليم، وكذلك من حضر من العلماء والشيوخ إلى السودان لنشر الدعوة الإسلامية والثقافة الدينية. ومن أوائل السودانيين الذين سافروا للحجاز الشيخ العجمي الذي جاور بمكة، وسكن في رباط العباسي، وانقطع للذكر والعبادة ومات دون أن يتزوج (١٩٥). وأيضاً الشيخ عبد الله دفع الله العركي الذي حج أربعاً وعشرين حجة اثنتي عشرة ذهاباً وإياباً واثنتي عشرة جواراً واشتهر هناك بالعلم ودرس في مكة وعاد إلى بلاده مرشداً للناس (١٩٦).

وهناك فئة كانت تسافر للحجاز طلباً للعلم والانتساب للطرق الصوفية فالشيخ حمد المجذوب (١٦٩٣ – ١٧٧٦) ذهب إلى هناك، واخذ الطريقة الشاذلية عن الفقيه " على الداروى " المغربي، وصار من مريديها في الحجاز، ثم نشرها

---

(١٩٣) نفسة ص٩٥.

(١٩٤) ولمزيد من التفاصيل عن الطبقات انظر: مقدمة التحقيق، وأيضاً: الذيل والتكملة: رجز إبراهيم عبد الرافع، شرح الشيخ أحمد السلاوي، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم، ويوسف فضل حسن. الخرطوم فبراير سنة ١٨٩١ من ص١ إلى ص٤١ وأيضاً تقييم نماذج بعض المصادر والمراجع في نهاية البحث.

(١٩٥) الطبقات تحقيق يوسف فضل، ص٨٨، الذيل والتكملة ص١٢.

(١٩٦) نفس المرجع ص٩٢.

بعد عودته بين مريديه من الجعليين وبعض البجة [١٩٧]، و " محمد بن عدلان الحوشابي الشايقي " قرأ علم الكلام والمنطق والأصول على الفقيه " عبد الله المغربي " عالم المدينة المنورة، ثم قدم إلى " تنقاس " من دار الشايقية، فقرأ بها القرآن، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وكان عالماً مجدداً [١٩٨].

ونلاحظ أيضاً أن بعض علماء السودان قد أشاد بهم علماء الحرمين والحجاز فمثلاً الشيخ " جنيد ولد طه " أعطاه الله قبولاً تاماً عند الملوك والسلاطين " ولا سيما أهل الحرمين والحجاز وحده [١٩٩] وعبد اللطيف بن الخطيب عمار برع في مجال التدريس هناك، وقد مدحه احد علماء الحجاز، وقال عنه " عالم الديار السنارية وعلامة الأقطار الإسلامية [٢٠٠]. ولم يكتف السودانيين بالدراسة والتعليم فقط في الحجاز [٢٠١] بل جلب الكثيرون منهم معهم من هناك العديد من الكتب العربية الدينية والثقافية فيقال أن الشيخ عبدالرحمن بن الشيخ صالح بان النقي ملأ من الكتب التي طلبها من الحجاز ومصر ست خزانات. ويقال أيضاً أن " عمار بن عبد الحفيظ أحضر معه نحو رحلين أو ثلاثة من الكتب [٢٠٢].

إذن ثمة عوامل ادت إلى توطيد وتوثيق اواصر الصلة بين الحجاز والسودان اعتبارا من عهد الفونج تميزت برحيل علماء من السودان للحج والمجاورة والعلم والتجارة ثم العودة لنشر الثقافة الإسلامية بين السودانين فقد كانوا فور عودتهم يبادرون بتأسيس الخاوي والمساجد ويعلمون فيها الناس القرآن والدين بالإضافة إلى بعض الشيوخ الذين حضروا من الحجاز إلى السودان لنشر مبادئ الشريعة الإسلامية.

(١٩٧) الطبقات: نفس المرجع، ص٧٨١ – ٨٨١.

(١٩٨) نفس المرجع ص٩٥٢.

(١٩٩) المرجع السابق ص٩٩٢.

(٢٠٠) نفس المرجع ص٩٩٢.

(٢٠١) الطبقات: نفس المرجع ص١٩٢.

(٢٠٢) الطبقات نفس المرجع ص٩٥٢.

المبحث الثامن

الطرق الصوفية ودورها في التحول

المبحث الثامن

الطرق الصوفية ودورها في التحول

تعتبر الطرق الصوفية من المؤثرات الفكرية التي أثرت على الحركة الفكرية في السودان فقد انتشر الفكر الصوفي في العالم الإسلامي كرد فعل للاتجاهات للحام والملوك الذين كانوا يقهرون الناس باسم الشريعة، وبدأت بالنهوض ثم تطورت إلى علم التصوف وبدأت تظهر بوادرها منذ الفتنة الكبرى وقيام دولة بني أمية واتخذت أشكالاً مختلفة في المعارضة، ومع ضعف وانحطاط وذيول التعليم والثقافة الدينية منذ القرن الخامس عشر نتيجة لتراجع العلوم الفلسفية والاقتصار على العلوم النقلية والركود والجمود السياسي الذي ساد العالم نتيجة الحروب الداخلية بالإضافة للاستبداد السياسي وفساد الحكام كل ذلك دفع بعض الناس ليتلمسوا الخلاص من الطرق الصوفية وانتشرت في العالم الإسلامي وأصبح التعليم يعني أساساً دراسة القرآن والتصوف الإسلامي.

جاءت الطرق الصوفية إلى السودان بحكم تفاعل السودان في تلك الفترة مع العالم الإسلامي والعالم الخارجي كما ذكرنا سابقاً ودخلت الطرق الصوفية السودان بتنوعها ولعبت دوراً كبيراً في نشر التعليم والثقافة الإسلامية، كما تفاعلت هذه الطرق مع الواقع والموروثات المحلية والإفريقية، ونتج الإسلام السوداني الذي اهتم بالتسامح وعدم التزامن والتنوع، والجمع بين الفقه والتصوف وتعدد المذاهب [٢٠٣].

العوامل التي ساعدت على إنتشار الطرق الصوفية في السودان تتلخص في اللآتي:

- انتشار الطرق الصوفية في البلاد العربية المجاورة للسودان والتي كان السودان على اتصال ثقافي وعلمي بها كالحجاز والعراق والمغرب ومصر [٢٠٤].

---

(٢٠٣) نعوم شقير: مصدر سابق ص٨٣١.

(٢٠٤) / نفسه، ص٨٣١.

- ترحيب ملوك الفونج بهذه الطرق ومشايخها وتشجيعهم للهجرة للسودان.
- أظهر المشايخ كثير من الصفات التي جعلت الناس يلجأون إليهم فقد كانو الملاذ الروحي والمادي في أغلب الأوقات.
- رغبة السودانيين وتشويقهم في الحياة بعيداً عن مزالق السياسة والحوب والصراعات القبلية (٢٠٥).

السلاطين يوطنون الطرق الصوفية في الدولة السنارية:

كان طبيعياً أن يصاحب قيام دولة إسلامية في السودان سعي القائمين على الحكم فيها توثيق علاقاتهم بالدول الإسلامية في جميع النواحي وخاصة في النواحي الثقافية والدينية، لتكوين حركة علمية تقوم بشرح تفاصيل الدعوة الإسلامية ومبادئها للناس لنهيهم عما يتعارض من عاداتهم ومعتقداتهم مع الإسلام والعقيدة الصحيحة.

وتتفق المراجع التاريخية (٢٠٦) على أن الحركة العلمية والثقافية التي صاحبت قيام دولة الفونج كان مصدرها مصر والحجاز والمغرب، فقد كان طبيعياً أن يرنو سلاطين دولة الفونج بأبصارهم إلى الحجاز وتوثيق علاقتهم به. فبالإضافة إلى شرف الإنتماء إلى آل البيت الذين يعتبر الحجاز موطنهم، فإن الحج إلى البيت الحرام كان أملاً يراود الملوك والعلماء والتجار والعامة، وأيضاً كانت التجارة وتبادل عروضها بين موانئ البحر الأحمر من الممارسات القديمة والتواصل المغرق في القدم، كما كان لسهولة الاتصال المباشر بالحجاز من سواكن عبر البحر الأحمر (٢٠٧) حافزا مهما للزيارات والتبادل التجاري كما ذكرنا سابقاً. كل هذا بلا شك أسهم في التشجيع على قيام علاقات ثقافية بين السودان والحجاز، وأثر مباشرة في انتقال الثقافة الحجازية إلى السودان بفضل بعض السودانيين الذين خرجوا من بلادهم إلى الحجاز يطلبون العلم، وأيضاً بعض المشايخ الذين وفدوا إلى السودان من الحجاز لنشر أفكارهم ومبادئهم.

---

(٢٠٥) نفسه، ص٩٣١.

(٢٠٦) المزيد من التفاصيل على اثر بعض البلدان الإسلامية على الحركة العلمية الثقافية في عهد الفونج: انظر: عبد المجيد عابدين: المرجع السابق ص٦٥، ٧٥ حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص٢٥١، ٤٥١، يحيى محمد إبراهيم: المرجع السابق، ص٢٤، ٤٤.

(٢٠٧) طرق دخول العرب للسودان (عبر البحر الأحمر، عن طريق مصر، درب الأربعين، عبر حوض تشاد عبر وسط إفريقيا جنوب الصحراء).

ومـــن العلمـــاء الذيـــن تذكرهـــم الروايـــات مـــن الذيـــن حـــضروا مـــن الحجـــاز إلى الســـودان:

١. الســـيد: أحمـــد البيـــلي: الـــذي ولـــد في مكـــة ودرس بالحـــرم المكـــي، ثـــم هاجـــر للســـودان عـــن طريـــق جـــدة، وعـــبر البحـــر الاحمـــر عـــن طريـــق ســـواكن إلى أن نـــزل بمدينـــة " شـــندي " حـــوالي ٩٣٢هــــ / ١٥٦٢م ثـــم ســـار إلى " مـــروي " حتى اســـتقر في " تنقـــاس " [٢٠٨]، وتـــزوج هنـــاك ويقـــال أنـــه نـــال تكريمـــاً مـــن الملـــوك [٢٠٩].

٢. الشـــيخ عيـــسى بـــن بشـــارة الانصـــاري: ومـــن العلمـــاء الذيـــن وفـــدوا إلى الســـودان مـــن المدينـــة المنـــورة الشـــيخ عيـــسى بـــن بشـــارة الأنصـــاري، والذي أســـس مدرســـة للتعليـــم بقريـــة " كترانـــج " التـــي تقـــع عـــلى الضفـــة اليمنـــى للنيـــل الازرق عـــلى بعـــد ٣٦ميـــلاً جنـــوب الخرطـــوم، وقـــد اقبـــل النـــاس عـــلى الشـــيخ عيـــسى وأبنـــاءه واحفـــاده يتلـــون عليهـــم العلـــم، وكان الشـــيخ عيـــسى بارعـــاً في المذهبـــين المالكـــي والشـــافعي ونابغـــة في العلـــوم المعقولـــة والمنقولـــة [٢١٠].

٣. الشـــيخ تـــاج الديـــن البهـــاري: ولعـــل أشـــهر العلمـــاء الذيـــن قدمـــوا مـــن الحجـــاز إلى الســـودان عـــلى الإطـــلاق هـــو الشـــيخ " تـــاج الديـــن البهـــاري " [٢١١] الـــذي جـــاء إلى الســـودان تلبيـــةُ لدعـــوة أحـــد التجـــار الســـودانيين المشـــهورين [٢١٢]. ويقال أن الشـــيخ " تـــاج الديـــن " أســـتقر في أرض الجزيـــرة بالســـودان حـــوالي ســـبع ســـنوات، تمكـــن فيها مـــن إدخـــال الطريقـــة القادريـــة الجيلانيـــة وســـلك العديـــد مـــن المريديـــن، وقـــد قـــام هـــؤلاء بتســـليك غيرهـــم بعـــد عـــودة شـــيخهم مـــرة ثانيـــة إلى الحجـــاز [٢١٣].

---

(٢٠٨) إحدى قرى المديرية الشمالية بالسودان " ديار الشافعية ".

(٢٠٩) يحيى محمد إبراهيم، المرجع السابق ص٦٤.

(٢١٠) عـز الديـن الأمـين: كترانـج واثرهـا العلمـي في السـودان (مجلـة الدراسـات السـودانية، مجلـد٢، عـدد أول مـارس سـنة ٠٧٩١م، مـن ص٨٤ إلى ص٠٧).

(٢١١) هـو محمـد تـاج الديـن البهـاري البغـدادي: احـد خلفـاء الشـيخ عبـد القـادر الجيلانـي، حـج إلى بيـت اللـه الحـرام وأثنـاء تواجـده هنـاك، دعـاه أحـد التجـار السـودانيين لزيـارة السـودان السـودان فقـدم مـن هنـاك وأقـام بمنطقـة الجزيـرة حـوالي سـبع سـنوات وهنـاك خـلاف بـين الباحثـين في تاريـخ قدومـه.

(٢١٢) Trininghan J .S: op , cit. P٢١٨.

(٢١٣) الطبقات: نفس المرجع، ص٤٤، ٥٤، الذيل والتكملة ص٢٥.

ومـن اشـهر مـن تتلمـذ عـلى يـده مـن القائمـين عـلى الحكـم في السـودان وقتـذاك الشـيخ عجيـب الكبـير [٢١٤] والـذي كان لـه الفضـل الكبـير في وضـع أسـس للحيـاة الإسلامية الثقافية في السودان وجعلها تأخذ طابعها العلمي المنظم [٢١٥].

ويـرى د. حسـن إبراهيـم حسـن أن أثـر العلمـاء والشـيوخ الذيـن حـضروا مـن الحجـاز إلى السـودان في عهـد الفونـج " في أنهـم لـم يكتفـوا بإنشـاء الزوايـا في بـلاد الفونـج فقـط بـل عملـوا عـلى نـشر الإسـلام في مناطـق أخـرى مـن السـودان حيث مـضى بعضهـم صـوب الغـرب حتـى بلغـوا دارفـور.

ويعتـبر نظـام الطـرق الصوفيـة كنظـام القبيلـة أو ككل نظـام اجتماعـي لـه تطوراته الخاصـة، فالطريقـة قـد تتفـرغ عنهـا طريقـة أخـرى، و لا تكـون هنالـك اختلافـات بـين الأصـل والفـرع إلا بصفـة ضئيلـة، وممـا يسـتوقف النظـر الزيـادة الواضحـة في عـدد شـيوخ الطـرق الذيـن هـم مـن أصـل مغربـي.

وقـد شـهد القـرن السـادس عـشر الميـلادي الانتشـار الكبـير للطـرق الدينيـة الصوفيـة والـذي يرجـع في الأصـل إلى خلـو المثابـات العلميـة، والمحـاضر الدينيـة، وجمـود معاهـد العلـم والتعليـم واقتصارهـا عـلي الطريقـة التقليديـة التـي تقـوم عـلى الحفـظ والتكـرار، فضـلاً عـن تطلـع السـكان إلى مـن يمـل فراغهـم الروحـي،، كمـا كان لضعـف وخمـول الحكومـة الإسـلامية في القـرون الاربعـة الماضيـة اوجـد لـدي النـاس فراغـاً كان لابـد مـن ملئـه، وكان لابـد أيضـاً للنـاس أن يجتمعـوا حـول شيء مـا يرتبطـون بـه ويوثقـون هـذا الارتبـاط، وإلا انفـرط عقدهـم واختـل نظامهـم ازداد أمرهـم سـوءاً ممـا أدى إلى زيـادة الإقبـال عـلى هـذه الطـرق بحثـاً عـن القائـد الموجـه والمرشـد القـدوة، فقـد كان لشـيوخ الطـرق الصوفيـة الفضـل في حفـظ جـذوة الإسـلام وحمـل رايتـه دون الحـكام وسـلطة السـلاطين [٢١٦]. أمـا عـن نشـأة هـذه الطـرق فـيرى البعـض أن الإسـلام في السـودان في عهـد سـلطنة الفونـج لـم يتأثـر

(٢١٤) هـو الشـيخ عجيـب بـن الشـيخ عبـد اللـه جمـاع احـد مؤسـسي دولـة سـنار، ويقـال ان هـذا الشـيخ قـد جلـس عـلى كـرسي الحكـم لمـدة طويلـة (٠٧٩- ٩١٠١م / ٣٦٥١- ٠١٦١م) وكان مولعـا بالثقافـة العربيـة الإسـلامية لذلـك بنـي المسـاجد ودور العلـم وانشـأ الأروقـة السـنارية للسـودانيين بالأزهـر والحرمـين وعمـل خفـراء عـلى طريـق الحـج والتجـار ممـا ذلـل مـن وعورتـه، محمـد سـليمان: المرجـع السـابق، ص٠٢.

(٢١٥) يحيى محمد إبراهيم: المرجع السابق، ص٤٤.

(٢١٦) وانظـر: مجلـة جامعـة أم القـرى، الدعـوة في السـودان وتأثرهـا بالدعـوة السـلفية " دراسـة تاريخيـة وثائقيـة " د. عمـر سـالم عمـر بابكـور، ٩/ ٦١. بتـصرف يسـير.

بمصر بقدر تأثره بالحجاز وذلك بسبب قرب المسافة بين السودان والأراضي المقدسة. وكان من نتيجة ذلك أن كثيراً من السودانيين درس في مكة والمدينة.

ومن ناحية أخرى قدم كثير من رجال الدين إلى سلطنة الفونج من مكة، وهذا الاتصال أدي إلى ظهور الطرق الدينية في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ولم تكن هذه الطرق على درجة من التنظيم كالتي نعرفها اليوم بل بدأت بأفراد من الصالحين قدموا إلى السودان، وأسسوا لأنفسهم مراكز لتحفيظ الفرآن الكريم و (زوايا) و(خلاوي) جمع خلوة [٢١٧].

وقد ازدهرت هذه الطرق في ظل سلطنة الفونج ازدهاراً كبيراً، ودليلنا على ذلك هذه المجموعة الغنية من السير التي وردت في (طبقات محمد النور ود. ضيف الله)، وهي تدل دلالة واضحة على مدي قوة الأثر الذي خلفته تعاليمهم في البلاد [٢١٨]، إذ وجدوا تربه خصبة بين السكان، ولم يلبث خلفاؤهم – وقد أصبحوا سودانيين – أن نالوا مكانة مرموقة لدي سلاطين الفونج في المسائل الدينية والسياسية على السواء بل وبدأ الناس يلتمسون وساطتهم عن طريق صلتهم بالحكام، وازداد تعلقهم بهم [٢١٩]. و انتشرت التعاليم و الآداب الصوفية في السودان بواسطة الطرق الصوفية المتعددة.

(٢١٧) الخلوة أكثر الكلمات التي تطلق في السودان على معاهد التعليم. سبق التعريف بها

انظر: عبد العزيز عبد المجيد: التربية الإسلامية. القاهرة ١٩٤٧م، ج١، ص٨٩-١٠٠، وانظر: مجلة جامعة أم القرى، الدعوة في السودان وتأثرها بالدعوة السلفية " دراسة تاريخية وثائقية " د. عمر سالم عمر بابكور، ٦١/٩. بتصرف يسير.

(٢١٨) محمد ضيف الله محمد الجعلي الفضلي. الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء في السودان، القاهرة ١٩٣٠م، ص٢٤١.

(٢١٩) Trimingham, Islam in the Sudan, London ١٩٤٩, pp. ١٩٥-٩٦.

المبحث التاسع

أشهر الطرق الصوفية

المبحث التاسع

أشهر الطرق الصوفية

تعتبر الطرق الصوفية من المؤثرات الفكرية التي أثرت على الحركة الفكرية في السودان فقد انتشر الفكر الصوفي في العالم الإسلامي كرد فعل للاتجاهات للحام والملوك الذين كانوا يقهرون الناس باسم الشريعة، وبدأت بالنهوض ثم تطورت إلى علم التصوف وبدأت تظهر بوادرها منذ الفتنة الكبرى وقيام دولة بني أمية واتخذت أشكالاً مختلفة في المعارضة، ومع ضعف وانحطاط وذيول التعليم والثقافة الدينية منذ القرن الخامس عشر نتيجة لتراجع العلوم الفلسفية والاقتصار على العلوم النقلية والركود والجمود السياسي الذي ساد العالم نتيجة الحروب الداخلية بالإضافة للاستبداد السياسي وفساد الحكام كل ذلك دفع بعض الناس ليتلمسوا الخلاص من الطرق الصوفية وانتشرت في العالم الإسلامي وأصبح التعليم يعني أساساً دراسة القرآن والتصوف الإسلامي.

جاءت الطرق الصوفية إلى السودان بحكم تفاعل السودان في تلك الفترة مع العالم الإسلامي والعالم الخارجي كما ذكرنا سابقاً ودخلت الطرق الصوفية السودان بتنوعها ولعبت دوراً كبيراً في نشر التعليم والثقافة الإسلامية، كما تفاعلت هذه الطرق مع الواقع والموروثات المحلية والإفريقية، ونتج الإسلام السوداني الذي اهتم بالتسامح وعدم التزامن والتنوع، والجمع بين الفقه والتصوف وتعدد المذاهب [٢٢٠].

العوامل التي ساعدت على إنتشار الطرق الصوفية في السودان تتلخص في اللآتي:

- انتشار الطرق الصوفية في البلاد العربية المجاورة للسودان والتي كان السودان على اتصال ثقافي وعلمي بها كالحجاز والعراق والمغرب ومصر [٢٢١].

(٢٢٠) نعوم شقير: مصدر سابق ص٨٣١.

(٢٢١) نفسه، ص٨٣١.

- ترحيب ملوك الفونج بهذه الطرق ومشايخها وتشجيعهم للهجرة للسودان.
- أظهر المشايخ كثير من الصفات التي جعلت الناس يلجأون إليهم فقد كانو الملاذ الروحي والمادي في أغلب الأوقات.

رغبة السودانيين وتشويقهم في الحياة بعيداً عن مزالق السياسة والحوب والصراعات القبلية [٢٢٢].

الطريقة القادرية:

من اوسع الجماعات الدينية انتشاراً في البلاد الإسلامية، تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر، ثم دخلت إلى إفريقيا الغربية في القرن الخامس عشر [٢٢٣] وفي حوالي (١٥٤٥م) قدم تاج الدين البهاري وأدخل الطريقة الى السودان بعد إذن من الشيخ عبد القادر الجيلاني، وجاء مع داؤود عبد الجليل الحاج سعيد، وأقام في الجزيرة سبع سنوات، سلك طريقه كل من محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادقاب، وبانقا الضرير جد اليعقوباب، والشيخ جيب المانجلك جد العبدلاب، وعبد الله دفع الله العركي جد العركيين[٢٢٤].

وقد اشتهرت الطريقة القادرية في بلاد الإسلام بفضل نشاط وجهود عدد من من تلاميذ وخلفاء ووكلاء الطريقة التي تنتسب للعارف بالله سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني (١٠٧٩ – ١١٨٦م) الذي عاش في العراق.. كم تنتسب الطريقة الشاذلية للشيخ ابو الحسن الشاذلي (١١٩٦ – ١٢٥٨م) من المغرب وقد توفي في طريق عيذاب بين النيل والبحر الأحمر وهو في طريقه إلى الحجاز. وقد وصلت الشاذلية إلى السودان على يد الشريف حمد أبو دنانة قبل سقوط مملكة علوة، واستقر في بربر سنة ٨٤٩هـ ١٤٤٥م وبقيت الخلافة في سلالته.

أما الطريقة القادرية الجيلانية فقد وصلت بعد ذلك بقرن من الزمان حوالي سنة ١٥٥٠ وقيل أيضاً أن أول خليفة لها في السودان هو إدريس بن أرباب

(٢٢٢) نفسه، ص٩٣١.

(٢٢٣) يوسف فضل: دراسات في تاريخ السودان وافريقيا وبلاد المغرب، دار جامعة الخرطوم للنشر ٢٨٩١م، ص٥٤.

(٢٢٤) عبد المجيد عابدين: مرجع سابق، ص١٧.

(١٥٠٧ – ١٥٦١م) وهـو مـن المحس كما نالت الشاذلية أيضاً نفوذاً كبيراً أيام الفونج على يد خوجلي بن عبد الرحمن (المتوفى في ١٧٤٣) وهو أيضاً من المحس وكان قادرياً ثم للشاذلية لما زار مكة.

و الطريقة القادرية من اوسع الجماعات الدينية انتشاراً في البلاد الإسلامية، تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر، ثم دخلت إلى إفريقيا الغربية في القرن الخامس عشر [٢٢٥] وفي حوالي (١٥٤٥م) قدم تاج الدين البهاري وأدخل الطريقة غلى السودان بعد إذن من الشيخ عبد القادر الجيلاني، وجاء مع داؤود عبد الجليل الحاج سعيد، وأقام في الجزيرة سبع سنوات، سلك طريقه كل من محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادقاب، وبانقا الضرير جد اليعقوباب، والشيخ جيب المانجلك جد العبدلاب، وعبد الله دفع الله العركي جد العركيين [٢٢٦].

الطريقة الشاذلية:

وهي منسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي (١١٩٦ – ١٢٥٨م) ولد في شاذلة في تونس، وانتشرت طريقته في مراكش في القرن الخامس عشر على يد أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي الذي تزوجت إحدى بناته من الشريف حمد أبي دنانة الذي نزح إلى السودان وسكن في المحمي وذلك سنة (١٤٤٥م) إلى قبل الفونج، ثم رسخت دائمها في أيام الفونج على يد الشيخ خوجلي عبد الرحمن المحسي، ومن بعده الشيخ حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣ – ١٧٧٦) الذي أسس فرعاً للشاذلية في الدامر وسميت طريقته بالمجاذيب. ولقد انتشرت العديد من الطرق الصوفية في كل أنحاء السودان وسيطرت على الخاصة والعامة.

وهنالك الطرق الصوفية التي نشأت في السنوات الأخيرة لدولة الفونج مثل الطريقة الختمية التي أسسها محمد عثمان الميرغني سنة (١٧٩٣م) والطريقة الإسماعلية التي أسسها إسماعيل الولي في كردفان ١٧٩٣ م والطريقة التجانية التي أدخلها محمد المختار عبد الرحمن الشنقيطي، والطريقة السمانية التي أسسها الطيب البشير عام (١٨٠٠م).

(٢٢٥) يوسف فضل: دراسات في تاريخ السودان وافريقيا وبلاد المغرب، دار جامعة الخرطوم للنشر ٢٨٩١م، ص٥٤.

(٢٢٦) عبد المجيد عابدين: مرجع سابق، ص١٧.

دعا المتصوفة في السودان إلى نشر وتعميق مبادئ العقيدة الإسلامية بطريقة مبسطة ويعتمدون على إلزام المريدين بإتباع منهج معين تعبدي. كما يبدو أنهم لجأ والي التلقين وإستعمال الترانيم والطبول في الأذكار في نشر تعاليم الدين الإسلامي (٢٢٧) وعلومه، كان النزاع بين الصوفية والعلماء في مملكة الفونج قليل الحدوث، لأن سلطة رجال الطرق الصوفية كانت قوية ومسيطره ولأن معظم الصوفية في ذلك العهد كانوا يجمعون بين الثقافتين الصوفية والعلمية.

كانت الثقافة الصوفية أو الجانب النظري للعلم الصوفي بين أفراد هذه الطرق محدوداً إلى جانب انحياز العلماء جميعاً في مكان واحد هو مقر الملك في سنار، وقد سبب فشلاً في انتشار العلم بين الناس وظل التعليم فردياً منحصراً في جهات معينة وقليلة، بمعنى ان الجانب العملي الصوفي يكون هو واجب الإتباع اما اجانب العلمي وجانب المعرفة لنظريات التصوف فقد يتجلى عند بعض كبار الرؤساء الروحانيون (٢٢٨). فإذا نظرنا في ثقافة هؤلاء الرؤساء قد تحدثوا عن التعرف بالكرامات، وغيرها ولكنه حديث فلسفة صوفية وليس منهجاً لحياة روحية ولعل نجاح الطرق الصوفية في مملكة الفونج كان لتمتع رجالها وشيوخها بقدر كبير من العلم والخلق الديني والورع والزهد والسلطان الروحي وقد كان للمريدين والأتباع عاملاً مساعداً أيضاً في نجاحها (٢٢٩)، فقد اعتقدوا أن مخالفة الولي قد تعود عليهم باللعنة والضرر وانتشرت البدع والغيبيات بصورة كبيرة خاصة وان الثقافة الفقهية كانت ضيفة والمعاهد العلمية والمعرفية محدودة فصار الشيوخ يمثلون قوة روحية ذات سلطان عظيم على العامة والملوك، لعبت الطرق الصوفية دوراً كبير في حفظ العلوم النقلية وظل المنهج التعليمي المتبع في الخلاوي والمساجد هو أساس المعرفة طوال عهد مملكة الفونج.

كما جسدت الطرق الصوفية قيم الدين في إطار الثقافة الشعبية ومناهجها في فلسفة وحكم وإشعار الشيخ فرح ود تكتوك لتنزيل قيم الدين في فهم بسيط وعقلية مجتمع تغلب عليه الأمية (٢٣٠)، وكان انتشار الصوفية في السودان بصورة

(٢٢٧) نفسه، ص٢٧.

(٢٢٨) ود ضيف الله: مصدر سابق ص٩.

(٢٢٩) نفسه، ص١٠.

(٢٣٠) حسن مكي محمد أحمد: الثقافة السنارية المغزى والمضمون، مركز البحوث والترجمة، جامعة أفريقيا العالمية ٢٠٠٥م، ص٤٥.

أعمق وأوسع من انتشارها في كثير من البلاد التي وفدت منها لدرجة أنها سيطرت على الحياة الفكرية وقد ارتبط ذلك بحالة الجهل والأمية التي يعيشها المجتمع السوداني كذلك صعوبة الاتصال بين أطرافه فقد كان في عزلة فكرية ولقد كانت هنالك خصومة بين الفقهاء والصوفية ولكنها كانت أقل في مملكة الفونج وذلك لأن التوافق والتزامن بين دخول الطرق الصوفية والعلوم الإسلامية والأخرى جنباً إلى جنب في عهد الفونج في السودان بخلاف ما هو موجود في البلاد الأخرى فالمعروف أن البلاد الإسلامية تعمقت في العلوم الإسلامية والمعرفية أولاً ثم الخوض في التصرف ولذلك نجد أن المجتمع السوداني استهوته الطرق الصوفية وليس لديه من الثقافة الدينية والفقهية في التوحيد وعلوم الفقه والحديث والسيرة وغيرها ما يجله يحكم على الصوفية من وجهة النظر الدينية الإسلامية السليمة والفكر ذلك على المجتمع السوداني على المستوى الاجتماعي والسياسي الديني، إضافة إلى أن الكثير من بين قيادات الطرق الصوفية جمع بين علم التصوف والفقه: ومهما يكن من شيء فإن الجانب الإيجابي كان انتشار التعليم والثقافة الإسلامية، وقد ساهمت الطرق الصوفية في نشر بعض المبادئ الإيجابية كالتعاون والاحترام ومساعدة الأخرين وسياسة التسامح والوحدة والاندماج ولكنها أصبحت مسئولة عن المظاهر السلبية كالبدع والخرافات.

وهي منسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي (١١٩٦ – ١٢٥٨م) ولد في شاذلة في تونس، وانتشرت طريقته في مراكش في القرن الخامس عشر على يد أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي الذي تزوجت إحدى بناته من الشريف حمد أبي دنانة الذي نزح إلى السودان وسكن في المحمية وذلك سنة (١٤٤٥م) إلى قبل الفونج، ثم رسخت أقدامها في أيام الفونج على يد الشيخ خوجلي عبد الرحمن المحسي، ومن بعده الشيخ حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣ – ١٧٧٦) الذي أسس فرعاً للشاذلية في الدامر وسميت طريقته بالمجاذيب. ولقد انتشرت العديد من الطرق الصوفية في كل أنحاء السودان وسيطرت على الخاصة والعامة.

وهنالك الطرق الصوفية التي نشأت في السنوات الأخيرة لدولة الفونج مثل الطريقة الختمية التي أسسها محمد عثمان الميرغني سنة (١٧٩٣م) والطريقة الإسماعلية التي أسسها إسماعيل الولي في كردفان ١٧٩٣م والطريقة التجانية

التـي أدخلهـا محمـد المختـار عبـد الرحمـن الشـنقيطي، والطريقـة السـمانية التـي أسسـها الطيـب البشـير عـام (١٨٠٠م).

دعـا المتصوفـة في السـودان إلى نـشر وتعميـق مبـادئ العقيـدة الإسـلامية بطريقـة مبسـطة ويعتمـدون عـلى إلـزام المريديـن بإتبـاع منهـج معـين تعبـدي. كمـا يبـدو أنهـم لجـأ والي التلقـين وإسـتعمال الترانيـم والطبـول في الأذكار في نـشر تعاليـم الديـن الإسـلامي [٢٣١] وعلومـه، كان النـزاع بـين الصوفيـة والعلمـاء في مملكـة الفونـج قليـل الحـدوث، لأن سـلطة رجـال الطـرق الصوفيـة كانـت قويـة ومسـيطره ولأن معظـم الصوفيـة في ذلـك العهـد كانـوا يجمعـون بـين الثقافتـين الصوفيـة والعلميـة.

كانـت الثقافـة الصوفيـة أو الجانـب النظـري للعلـم الصـوفي بـين أفـراد هـذه الطـرق محـدوداً إلى جانـب انحيـاز العلمـاء جميعـاً في مـكان واحـد هـو مقـر الملـك في سـنار، وقـد سـبب فشـلاً في انتشـار العلـم بـين النـاس وظـل التعليـم فرديـاً منحـصراً في جهـات معينـة وقليلـة، بمعنـى ان الجانـب العمـلي الصـوفي يكـون هـو واجـب الإتبـاع امـا اجانـب العلمـي وجانـب المعرفـة لنظريـات التصـوف فقـد يتجـلى عنـد بعـض كبـار الرؤسـاء الروحانيـون [٢٣٢]. فـإذا نظرنـا في ثقافـة هـؤلاء الرؤسـاء قـد تحدثـوا عـن التعـرف بالكرامـات، وغيرهـا ولكنـه حديـث فلسـفة صوفيـة وليـس منهجـاً لحيـاة روحيـة ولعـل نجـاح الطـرق الصوفيـة في مملكـة الفونـج كان لتمتـع رجالهـا وشـيوخها بقـدر كبـير مـن العلـم والخلـق الدينـي والـورع والزهـد والسـلطان الروحـي وقـد كان للمريديـن والأتبـاع عامـلاً مسـاعداً أيضـاً في نجاحهـا [٢٣٣]، فقـد اعتقـدوا أن مخالفـة الـولي قـد تعـود عليهـم باللعنـة والـضرر وانتـشرت البـدع والغيبيـات بصـورة كبـيرة خاصـة وان الثقافـة الفقهيـة كانـت ضيفـة والمعاهد العلميـة والمعرفيـة محـدودة فصـار الشـيوخ يمثلـون قـوة روحيـة ذات سـلطان عظيـم عـلى العامـة والملـوك، لعبـت الطـرق الصوفيـة دوراً كبـير في حفـظ العلـوم النقليـة وظـل المنهـج التعليمـي المتبـع في الخـلاوي والمسـاجد هـو أسـاس المعرفـة طـوال عهـد مملكـة الفونـج.

كمـا جسـدت الطـرق الصوفيـة قيـم الديـن في إطـار الثقافـة الشـعبية ومناهجهـا في

(٢٣١) نفسه، ص٢٧.

(٢٣٢) ود ضيف الله: مصدر سابق ص٩.

(٢٣٣) نفسه، ص٠١.

فلسـفة وحكـم وإشـعار الشـيخ فـرح ود تكتـوك لتنزيـل قيـم الديـن في فهـم بسـيط وعقليـة مجتمـع تغلـب عليـه الأميـة [٢٣٤]، وكان انتشـار الصوفيـة في السـودان بصورة أعمـق وأوسـع مـن انتشـارها في كثـير مـن البـلاد التـي وفـدت منهـا لدرجـة أنهـا سـيطرت عـلى الحيـاة الفكريـة وقـد ارتبـط ذلـك بحالـة الجهـل والأميـة التـي يعيشـها المجتمـع السـوداني كذلـك صعوبـة الاتصـال بـين أطرافـه فقـد كان في عزلـة فكريـة ولقـد كانـت هنالـك خصومـة بـين الفقهـاء والصوفيـة ولكنهـا كانـت أقـل في مملكـة الفونـج وذلـك لأن التوافـق والتزامـن بـين دخـول الطـرق الصوفيـة والعلـوم الإسـلامية والأخـرى جنبـاً إلى جنـب في عهـد الفونـج في السـودان بخـلاف مـا هـو موجـود في البـلاد الأخـرى فالمعـروف أن البـلاد الإسـلامية تعمقـت في العلـوم الإسـلامية والمعرفيـة أولاً ثـم الخـوض في التـصرف ولذلـك نجـد أن المجتمـع السـوداني اسـتهوته الطـرق الصوفيـة وليـس لديـه مـن الثقافـة الدينيـة والفقهيـة في التوحيـد وعلـوم الفقـه والحديـث والسـيرة وغيرهـا مـا يجلـه يحكـم عـلى الصوفيـة مـن وجهـة النظـر الدينيـة الإسـلامية السـليمة والفكـر ذلـك عـلى المجتمـع السـوداني عـلى المسـتوى الاجتماعـي والسـياسي الدينـي، إضافـة إلى أن الكثـير مـن بـين قيـادات الطـرق الصوفيـة جمـع بـين علـم التصـوف والفقـه: ومهمـا يكـن مـن شيء فـإن الجانـب الإيجابـي كان انتشـار التعليـم والثقافـة الإسـلامية، وقـد سـاهمت الطـرق الصوفيـة في نـشر بعـض المبـادئ الإيجابيـة كالتعـاون والاحـترام ومسـاعدة الأخريـن وسياسـة التسـامح والوحـدة والاندمـاج ولكنهـا أصبحـت مسـئولة عـن المظاهـر السـلبية كالبـدع والخرافـات.

وبـدأت الطريقـة المجذوبيـة المتفرعـة عـن الشـاذلية تنتـشر في شـمال السـودان في بدايـة القـرن الثامـن عـشر عـلى يـد حمد بـن محمـد المجـذوب الجـد الأكـبر للمجاذيـب (١٦٩٣ – ١٧٧٦م) وأصبحـت لأسرتـه مكانـة في مدينـة الدامـر [٢٣٥]. وقـد أورد لنـا ود ضيـف الله في طبقاتـه تراجـم وسـير لمائتـين مـن شـيوخ هـذه الطـرق ومـا تـردد عـن كراماتهم.

(٢٣٤) حسن مكي محمد أحمد: الثقافة السنارية المغزى والمضمون، مركز البحوث والترجمة، جامعة أفريقيا العالمية ٢٠٠٥م، ص٤٥.

(٢٣٥) في صيف ٤١٨١م وصل الرحالة السويسري بوركارت إلى الدامر وأعجبته نظافة البلدة التي كان يسودها جو من الصلاح والتقوى، فالسيادة فيها كانت لرجال الدين وينتمون جميعاً لأسرة سماها خطأ (المجدولين) وصحتها (المجذوبين) نسبة إلى حمد بن المجذوب، ولهذه الجماعة فضل كبير في نشر التعاليم الإسلامي في السودان (انظر: tdrahkcruB , J., slevarT ni aibuN , nodnoL ٩١٨١ , P. ٥٦٢. وقد فر حفيده محمد المجذوب (٦٩٧١ – ٢٣٨١) إلى مكة أمام الفتح المصري وعاد إلى سواكن ٠٣٨١ ونشر تعاليمه في شرقي السودان وأصبح له نفوذ كبير لدي الجعليين والبجة على السواء وسوف يجد عثمان دقنة قائد المهدية في شرق السودان تأييداً كبيراً من شيخ الطريقة في سواكن الطاهر الطيب المجذوب ٢٢٨١ – ٠٩٨١ م.

الطريقة السمانية:

وفي عـام ١٨٠٠ دخلـت السـودان الطريقـة السـمانية عـلى يـدي أحـد أفـراد قبيلـة الجموعيـة وهـو أحمـد الطيـب بـن البشـير ولـم يلبـث أن تبعـه خلـق كثـيرون مـن بـين أفـراد الجموعيـة والكواهلـة والحلاويـين في الجزيـرة [٢٣٦]. ولعـل أحـداً لـم يحرز نفـوذاً في السـودان كمـا أحـرزه السـيد أحمـد بـن إدريـس القـاسي (١٧٦٠ – ١٨٣٧)، وهـو أحـد كبـار المصلحـين الذيـن عمـل أتباعهـم عـلى نـشر طريقتـه بـين المسـلمين والوثنيـين عـلى السـواء، ورغـم أنـه أسـس الطريقـة الإدريسـية التـي لا تـزال تمـارس نشـاطها في السـودان ومركزهـا في دنقلـه، وهنـاك فـروع لهـا في عسـير تنتمـي إلى هـذه الطريقـة، إلا أن تأثـير أحمـد بـن إدريـس الأكـبر جـاء عـن طريـق تلاميـذه وهـم:

١ – محمد المجذوب الصغير ١٧٩٦ – ١٨٣٢.

٢ – محمد عثمان الميرغني ١٧٩٦ – ١٨٣٢.

مؤسـس الطريقـة الميرغنيـة أو الختميـة في الشـمال والـشرق، وهـي واسـعة الانتشـار، سـبقت الفتـح المـصري بقليـل، ومثـل هـذه الطـرق كانـت تعطـف عـلى الحكـم المـصري، لأنهـا بحكـم تكوينهـا ووجودهـا ليسـت سـودانية بالمعنـى الوطنـي الحرفي، بـل هـي إسـلامية لهـا أتبـاع وأسـانيد ومـوارد خـارج حـدود السـودان الضيقـة، فالميرغنـي ولـد في الحجـاز عـام ١٧٩٣م.

وحـين زار السـودان لأمـور تتعلـق بالطريقـة في عـام ١٨١٧ تـزوج امـرأة مـن مدينـة بـارا، وكان ابنـه الحسـن نائبـه في السـودان وخلفـه عـام ١٨٥٣م عقـب وفاتـه، وقـد ذهـب محمـد عثمـان إلى أن طريقتـه قـد أتـت عـلى كل الطـرق الأخـرى وأتمتهـا ولذلـك أعلـن عنهـا (خاتمـة الطـرق) وسـماها الختميـة.

وتوجـد طريقـة سـودانية صرفـة وهـي الطريقـة الإسـماعيلية التي أسسـها إسـماعيل بـن عبـد اللـه ١٧٩٣ – ١٨٦٣ في الأبيـض بـإذن مـن الشـيخ محمـد عثمـان الميرغنـي، وكان خليفتـه محمـد المكـي مـن أكـبر أنصـار الخليفـة عبـد اللـه وقـد انتـشرت طريقتـه في بعـض جهـات كردفـان [٢٣٧]. وقـد كان للطـرق تأثـير كبـير عـلى النـاس.

(٢٣٦) شقير: المرجع السابق، ج٣، ص ٣١٦ – ٤١٦.

(٢٣٧) Trimingham, Op. Cit, P.٢٠٠; Holt, Op. Cit., p.٢٠.

المبحث العاشر

الأثر الثقافي و الاجتماعي للصوفية

المبحث العاشر

الأثر الثقافي و الاجتماعي للصوفية

لا يوجد فاصلا بين النشاط الصوفي والنشاط العلمي، في بدايته في الدولة السنارية ؛ لأن أغلب العلماء كانوا متصوفة في آن واحد، ذلك مما جعل مراكز الجماعات الصوفية، تقوم بأداء دورها في نشر الدعوة إلى الاسلام، ونشر العلوم الدينية والعربية، فأسرعت إلى انشاء المساجد و الزوايا والخلاوي ؛ ويتولى إدارة تلك المرافق المشايخ أنفسهم من خلال نظام دقيق [٢٣٨]، ولم تكن مهمة هؤلاء العلماء محصورة في تعليم الناس أمور دينهم فقط بل عملوا إلى توحيد الناس تحت ظل الطرق الصوفية، فتآلف الناس وتحابوا في اخوة روحية، ذلك مما اضعف رابطة القبيلة بعض الشئ وقلل من الحمية العنصرية وحولها إلى حمية دينية، فاثر ذلك بدوره على علاقات الناس وقلل من وحدة الصراعات والخلافات بين القبائل، وربط الناس برباط قائم على الدين والانتساب للطريقة الصوفية [٢٣٩] كما ان الطرق الصوفية على اختلاف مشاربها الروحية قد اصلت وحدة ثقافية دينية إذ ان شيوخها كانوا من علماء الدعاء السنين، ذلك مما ساعدة في وحدة ثقافية اساسها الكتاب والسنة، فقد قدم قبل قيام سنار بقليل الشيخ الشريف حمد ابو دنانة ونزل في جهات (المحمية) ونشر الطريقة الشاذلية، كما قدم قدم في زمنه علماء متصوفون مثل الشيخ البغدادي من الشام، والشيخ احمد ولد زروق من اليمن.

وقاموا كلهم بنشر العلم، والتصوف من قبل سنار بقليل وحضروا قيامها وواصلوا دورها اثناء قيامها[٢٤٠]، وقيام دولة السنار الاسلامية قدم من العراق الشيخ تاج الدين البهاري، والشيخ التلمساني في المغرب من المغرب فنشر طريقة القوم في السودان، وعلم الناس علوم القرآن، ونشر علوم التوحيد، واخذ

---

(٢٣٨) انظر: دور الأزهر في السودان ص: ٣٩.

(٢٣٩) مخطوطة كاتب الشونة ص ٥-٦.

(٢٤٠) مخطوطة كاتب الشونه من ٤٢١ شقير ٩١٣، السودان في القرن ٠٦ وبذلك تكون الشاذلية اول طريقة صوفية تخلت السودان حسب الروايات المسجلة، وقد واد انتشارها عن طريق اولئك العلماء الرواد الذين درسوا في الازهر، فقد كان اكثرهم شاذليا، دور الازهر في السودان ص ١٩-٢٩.

عنه علماء كثيرون [٢٤١].وقد سيطر الجانب الصوفي سيطرة جعلت السوان كله صوفيا، وشكل ذلك ظاهرة لفتت نظر الباحثين والمؤرخين، فلزم البحث عن التفسير هذه الظاهرة التي تفرد بها السودان عن الاقطار الاخرى، ويمكننا ان نلخص تفسيرنا لهذه الظاهرة في النقاط التالية:

اولا: ان العناصر العربية التي دخلت السودان عبر تلك الهجرات التي تابعناها في ومنها الطويل كانت عناصر بدوية في اغلبها، فاختلطت بالسكان وواجهت تلك العناصر تتسم التي ورثت عن اصولها اللهجات العربية واصول العقيدة الاسلامية قلة الدرامية بأمور الدين في العلوم والمعاملات والتوجه الفكري، مما جعل تلك العناصر تتسم بالضعف العلمي قبل قيام مملكة الفونج، وذلك ساعد إلى حد كبير على انتشار الطرق الصوفية.

ثانيا: تلك الطرق كانت منتشرة في بلاد عربيه التي كان السودان على صلة بها، كالحجاز، ومصر، والعراق، والمغرب، ومنها تسربت على ايدي الدعاة والمهاجرين والسودانيين الراجعين الى بلادهم بعد التحصيل.

ثالثا: إن العرب الذين حضروا الى السودان قد هاجر اكثرهم تحت ظروف قاسية وصعبة، حيت الجاتهم تقلبات السياسة الى تلك الهجرات، وقد كرهوا تلك التقلبات من حكم عباسي، الى فاطمي، الى ايوبي، الى مملوكي، بل كانت تلك الاوضاع تطاردهم في بعض الاحيان كما حصل من الايوبيين والمماليك، حيث عملوا السيف مرارا ، كما تردى الحال بينهم بالانقسامات الداخلية والحروب الدائره بينهم وبين المسيحيين، وبين بعضهم البعض تحت تاثير النعرات القبلية ذلك مما جعل حال الاستقرار تسوء الى اقصى درجة حيث التفرق القبلي،كل ذلك قد اورث في النفوس _في ذلك العهد-الوغبة الشديدة في حياة بعيدة عن مزالق السياسية والعصبية، فما ان وجدوا من اول عهد الفونج ان هؤلاء المشايخ يدعون الى الانتظام في سلك العبادة في اخوة ومحبة حتى لبوا الدعوة في حماسة بالغة.

رابعا: اضف الى ذلك انتشار الفقر و الاوبئة والمجاعات،مما عطل كثيرا من ممارسات الناس ومعالجتهم لأسباب الحياة،وذلك جعلهم يلجؤون لشيوخ

(٢٤١) تاريخ الثقافة العربية في السودان عابدين ص ٣٥ وما بعدها.

الصوفية،اذ وجدوا فيهم الملجأ والمعين، فقد كانوا يطعمون جوعاهم، ويعالجون مرضاهم ويؤمنونهم من جور الظالمين، كما ان اغلب هؤلاء المشايخ قد تميز بصفات رفيعة بهرتهم وجعلتهم يتعلقون بهم،وتلك الصفات هي: الزهد، وصفاء النفس، والاجتهاد في التعبد، والسعي للإصلاح، وحب الخير للناس جميعا، والتواضع، ونكران الذات، ذلك مما جعلهم قدوة حسنة ومثالا صادقا لما يقولون،وقد رفعهم ذلك في اذهان الاتباع والتلاميذ الى درجة التقديس.

وقد وجد شيوخ الطريق الجو المناسب والحرية الكاملة لتكوين مجتمع صوفي يدين لهم بالولاء فقد كان الملوك والسلاطين يكرمونهم ويقدرونهم، ويقبلون شفاعتهم، ويطلبون بركتهم وصالح دعائهم وصادق نصحهم، ويقطعونهم الاقطاعات الواسعة،ويساعدونهم بشتى السبل حتى يقوموا لدورهم كاملا. كل ذلك رفع مكانتهم بين عامة الناس وخاصتهم.

خامسا: أضف الى ذلك ان البلاد الاسلامية الاخرى في اغلبها قد تأصلت فيها دراسة العلوم الدينية والعربية والفلسفية قبل ان تعرف التصوف في ثوبه الاخير.أما السودان فقد دخلته هذه العلوم مصحوبة بالتصوف، أو دخله التصوف مصحوبا بهذه العلوم،لذلك كان لحركة التصوف شأن في السودان غير شأنها في البلاد الاسلامية الاخرى [٢٤٢].

وهذا ما جعلها تشكل الحياة العقلية والعاطفية في السودان بصفة خاصة، أثرت في مسيرة حياته وتحريك أحداثه حتى اليوم،وفي ذلك يقول د. مكي شبيكة(وفي الناحية الدينية غلي الطابع الصوفي على طابع التفقه في العلم والشريعة [٢٤٣]، ورجل الكرامات والشطحات وشيخ الطريق كون لنفسه العديد من الاتباع والمريدين رهن اشارته وطوع بنانه، وينظرون اليه بعين التقدير والاعجاب والقداسة،واذا ما توفى أصبح ضريحه مزارا تعقد فيه حلقات الذكر في المناسبات الدينية وواصلوا ولاءهم واخلاصهم لخليفته والخلفاء من بعده فتكون بذلك نظام من الرياسة يشبه في كثير من ملامحه نظام الامامة عند الشيعة.

(٢٤٢) المصدر السابق، ص: ١٦ـ ٢٦، وانظر: المهدية في السودان، هولت ص: ٦، ٧.

(٢٤٣) الشعر السوداني في المعارك السياسية ص٦٣

وكلمـا زاد عـدد القبـاب التـي تحـوي رفـات الاوليـاء والصالحـين وادت رابطـة أخـوة جديـدة بـكل مـا يتبعهـا مـن خضـوع وولاء و تأدب،وتتفـاوت هـذه الطـرق الدينيـة في عددهـا واتباعهـا ومـدى خضوعهـم لها،ومـدى اسـتخدام زعمائهـم لهـذه التبيعـة ذات الـولاء الدينـي في ميادـين السياسـة والتكتـلات الحزبيـة.

وبهـذا تكونـت ركائـز مجتمعنـا الحـالي في عهـد الفونـج حيـث تفاعلـت الطقـوس والتقاليـد مـع مؤثـرات النعـرة القبليـة والديـن الاسـلامي مـع تقلـب ناحيـة الطـرق الصوفيـة عليـه [٢٤٤].

سادسا: ان الحـس الافريقـي في تكويـن الشـخصية السـودانية كان عـلى اسـتعداد للاسـتجابة الصوفيـة بأذكارهـا و اناشـيدها وجوهـا الغيبـي المسـحور[٢٤٥].

---

(٢٤٤) الشعر السوداني في المعارك السياسية ص٧٣،الفكر السوداني أصوله وتطوره محمد المكي ابراهيم.

(٢٤٥) لعله يريد بذلك عامة الناس لان هناك من تفرغ للحركة العلمية كما نرى ان شاء الله.

المبحث الحادي عشر

النشاط العلمي قبل الدولة السنارية

المبحث الحادي عشر

النشاط العلمي قبل الدولة السنارية

لم تبدأ هجرة العلماء المسلمين إلى سنار ؛ بعد قيام الدولة السنارية، ولكنها تواصلت بصورة واضحة، حيث كانت تلك الهجرات بدأت قبل قيام الدولة السنارية ؛ إلا أنها اتخذت بعدا آخرا بعد قيام دولة سنار، واتخذت مظاهر الكثرة في التوالي، حيث انتشر العنصر العربي الاسلامي وسيطر ثقافيا واجتماعيا داخل الدولتين المسيحيتين (علوة و المقرة) فقد كانتا في ضعف شديد كما اوضحنا، وقد سمحت الظروف بقيام نشاط علمي اسلامي قبل قيام سنار بكثير، فقد ذكر انه في خلافة هارون الرشيد قدم عليه جماعة من(بر السودان) وهو ببغداد طلبوا اليه ان يرسل معهم علماء يعلمونهم امور دينهم، فأرسل معهم سبعة علماء من بني العباس ووصلوا الى(دنقلة)واقاموا بها، وتناسلت منهم ذرية كثيرة [٢٤٦]، وكانوا اولاد عون الله السبعة يقومون بنشر العلم وتحفيظ القرآن،واستمر ذلك الى قيام دولة الفونج الاسلامية، وقد شغل احدهم وهو المسمى بالضرير منصب القضاء الاسلامي زمن الدولة المسيحية،وكان جدهم يقوم بمهمة نشر المعرفة الاسلامية قبلهم، ولا زالت قبور أولئك العلماء ظاهرة في منطقة (ود ابو حليمة) شمال الخرطوم.

وقبل قيام سنار بثلاثين سنة اسست مدينة (اربجي)،اسسها عالم يقال له الشيخ (حجازي بن معين)و وكانت حاضرة علم وثقافة [٢٤٧]، وفي جهة الحلفايا وقبل قيام سنار كان الشيخ (البندراوي الشامي) يقوم بتحفيظ القرآن وتدريس العلوم الشرعية والعربية،وقد اخذ عنه علماء كثيرون،وقدم في زمنه الشيخ احمد ولد زروق من اليمن،وجلس لتدريس العلوم الاسلامية واخذ عنه ايضا علماء كثيرون [٢٤٨].وقد حضر معه الفقيه (جار النبي) وفي ذلك الوقت حضر الشريف (حمد ابو دنانة) من المغرب يحمل العلم والتصوف، فاستفاد منه خلق كثير، وهو اول من نشر الطريقة الشاذلية في السودان، ويعد من

(٢٤٦) السودان في قرن ص٢٩

(٢٤٧) الفكر السوداني اصوله وتطوره ص٩

(٢٤٨) مخطوطة كاتب الشونة ص٤٢١

العلماء الرواد في السودان [٢٤٩]، كما ان الشيخ عبد الله القواسمي المعروف بعبد الله جماع قام بالتدريس وتحفيظ القرآن، وتنقل في ربوع السودان لهذه المهمة، هذا كله قبل ان يتصدى للقيادة السياسية ويوحد القبائل العربية في حلف مع ملوك الفونج [٢٥٠] كل ذلك يؤكد بطلان ادعاء من يقول ان المجتمع المسلم في السودان قبل قيام سنار كان في حالة جهل شديد يساوي في اميتة الدينية شعب ٠ (العنج) المسيحي في جهله بأمور دينه [٢٥١]. فلو كان ذلك كذلك لما أمكنه التغلب عليه ثقافيا وسياسيا.

التكوين المجتمعي لسلطنة سنار:

ذكرت بعض الروايات التاريخية أن بداية التغلغل العربي في السودان بدأ بحملة وإلى مصر الذي خلف عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهو عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه، الذي جرد حملة في سنة ٦٤١م لفتح بلاد النوبة المسيحية، غير أنَّ هذه الحملة لم تنجح في مسعاها، وقد لجأ الطرفان إلى عقد مصالحة أو معاهدة سميت بمعاهدة "البقط" ولعلها أطول معاهدة في التاريخ إذ ظلت نافذة على مدى ستة قرون [٢٥٢].

ومن خلالها فتحت هذه المعاهدة الباب لتدفق العرب المسلمين على بلاد النوبة في شمال السودان، كما شكلت هذه المعاهدة بداية لمعاهدة قبائل البجة التي أبرمت في شرق السودان عام ٨٥٥م. ومن أهم معالم الاتفاقية بداية انتشار الوجود العربي والثقافة العربية في السودان، كما فتحت الاتفاقية الباب موارباً لتدفقات أعداد كبيرة من المهاجرين بداية بقبيلة ربيعة التي كانت تعمل على تنقيب الذهب في منطقة وادي العلاقي في المنطقة الممتدة بين ميناء عيذاب وأسوان وبلاد النوبة في شمال الصحراء [٢٥٣]. ومنذ ذلك الحين توافدت مجموعة من القبائل العربية المتنافسة على الثروة والملك في المنطقة سواء بين البجا والنوبة[٢٥٤].

(٢٤٩) نفسه ص١٠-١١ والطبقات ص ٤٢١ و٠٤-١٤ تحقيق د. يوسف فضل.

(٢٥٠) نفسه ٤٢١ -٥٢١ وطبقات ود ضيف الله ٠٥١

(٢٥١) السودان في قرون ص١ وما بعدها وتاريخ وحضارة السودان ٤٢٣ وقفات مع تاريخ السودان صلاح عربي.

(٢٥٢) فضل، ٥٨٩١م: ٩٣.

(٢٥٣) سبيكة، ٤٧٩١م: ٢٩.

(٢٥٤) ضرار، بدون التاريخ: ٢٣.

ويرى بعض مؤرخي التاريخ أن السودان في حوالي القرن العاشر الميلادي وما بعده حتى عهد الممالك الإسلامية تشكل أهم الفترات التاريخية، إذ وفد إلى السودان عدد من القبائل العربية كالقواسمة وربيعة وجهينة، والتي أخذت تتقاطر على سهول السودان الواسعة، ونتيجة لتلك الهجرات المتوالية بدأت ثقافة التعريب تنتشر في أنحاء السودان المختلفة عن طريق المصاهرة. وبزوال الممالك المسيحية وتدفق العرب جنوباً إلى سنار أصبحت اللغة العربية تسود أنحاء البلاد، فاختلطت باللهجات المحلية. ومن أبرز ظواهر هذه الهجرات انتشار الإسلام في ربوع السلطنة. وقد كان لسلاطين الفونج دور كبير في إفاد العلماء والفقهاء فكانت لهم مكانة خاصة في الدولة [٢٥٥].

وعلى إثرها ظهر عدد من الأدباء و الشعراء في الفضاء السناري أسهموا باجتراح هوية توفيقية (الأفروعربية). ومن أشهر الشعراء الذين كتبوا عن سنار الشاعر محمد عبد الحي، والذي اسهم في تبني ثقافة الاندماج والتعايش بين الثقافة العربية والثقافات المحلية الأخرى، وتعدّ قصيدته " العودة إلى سنار " ١٩٦٣م خير دليل، وذلك عندما اختار سنار نموذجاً ورمزاً للهوية السودانية (الأفروعربية) حيث يتكون المجتمع السناري من اتحاد مجموعة القبائل العربية في الشمال، والقبائل الزنجية في الجنوب، لتشكل معاً سلطنة قوية مركزها وسط السودان. ومن الشعراء كذلك: النور عثمان أبكر، ومحمد المكي إبراهيم ؛ وغيرهم.

بينما يرى عدد من المؤرخين وعلماء الأجناس أن علاقات التصاهر بين شعوب المنطقتين فيد بدأت قبل ظهور الإسلام ويرون أن البجا في شرق السودان والماساي في شرق إفريقيا من نتاج تزاوج عربي إفريقي. ويورد الدكتور فرنسيس دينق في كتابه " أفارقة عالميين " آراء للأنثربولوجي البريطاني المعروف السير إدوارد إيفانس بريتشارد وللقس الباحث في الشأن السوداني جون سبنسر تريمنغهام وسيلغمان تفيد بأن القبائل النيلية في جنوب السودان وهي الدينكا والنوير والشلك تحمل دماء قوقازية وحامية. ويشير فرنسيس دينق في المصدر ذاته غلى عمق تأثر عقائد هذه القبائل بما جاء في الديانات السماوية الثلاث الوافدة من الشرق الأوسط وهي الإسلام والمسيحية واليهودية [٢٥٦].

(٢٥٥) فضل، ١٩٨٧م: ٩٣.

(٢٥٦) الحاج، ٢٠٠٤م: ٤٤.

ويرى الباحث أنَّ للهجرات العربية أثر كبير في تكوين البنية الفكرية والثقافية في سلطنة سنار هذا بجانب الثقافة الإفريقية التي هي نتاج تراث ثلاثي يتكون من الإسلام وبالطبع ما حمله من سمات عربية، والإرث الإفريقي المحلي (in-digenos)، ثالثاً الميراث الغربي المسيحي الذي جاء به الاستعمار الأوروبي إلى القارة، وهذا يظهر جلياً في اللغات والعادات والتقاليد والموروثات الشعبية وغيرها.

هكذا تكاثر الوجود العربي والإسلامي بسقوط الممالك النوبة المسيحية الثلاث، وعلى منوالها تزايد التصاهر بين العرب والنوبة فانتشرت اللغة العربية والثقافة الإسلامية في ربوع السودان عامة، وفي سلطنة سنار على وجه الخصوص، ويرجع ابن خلدون أن العرب استفادوا من تقاليد النوبة في توريث الملك لأبناء الأخوات فتزوجوا أخوات الملوك حتى انتهى الملك إلى أبناء العرب من النوبيات فزاد ذلك من وتيرة التعريب في البلاد وانتهت عمليات التصاهر بقيام أول دولة عربية إسلامية في السودان عام ١٥٠٤م أي قبل زهاء خمسمائة عام من يومنا هذا.

ارتبط انتشار الإسلام في السودان منذ فجر هجرة الجماعات العربية إلى السودان. فبعد إن حلت هذه القبائل بالسودان بدأ الاختلاط بالسكان المحليين، سواء من العناصر النوبية او البجة أو سكان غرب السودان بدارفور وكردفان. وبعد فتح عمرو بن العاص لمصر عام (٦٥١ – ٦٥٢م) انتهت بعقد اتفاقية البقط [٢٥٧]. وقد نتجت من تلك الهجرات علاقات تعايش شكلت من خلالها نموذج للدولة السودانية الحديث. فكان التعايش الذي تم بين الثقافة العربية الإسلامية الوافدة والثقافة المحلية بكل موروثاتها القديمة وأوضاعها الحالية أصبح هو المكون الرئيسي لخصائص المجتمع السوداني الذي نراه اليوم. كما ظلت اتفاقية البقط مدة ستة قرون، أحدثت في هذه الفترة الكثير من المؤثرات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية على المنطقة.

هكذا أصبح تأثير الثقافة في مفهوم الدولة الحديثة في السودان واقعاً لا يمكن انكاره، فإذا نظرنا إلى كثير من المعتقدات والتقاليد والأعراف والفنون والمعارف

(٢٥٧) مسعد، ١٩٦٠م: ٠٦.

نجدهـا تنسـجم مـع الثقافـة الإسـلامية التـي أصبحـت جـزء مـن لـواء الأمـة السـودانية الوافـدة قديمـاً وحديثـاً، والتـي عـلى منوالهـا تكونـت ملامـح الشـخصية السـودانية التـي سـاهمت في بنـاء الدولـة الحديثـة، والتـي تضـم مختلـف الأعـراق والمعتقـدات. فالثقافـة السـودانية هـي مزيـج مـن الثقافـات الوافـدة والمحليـة عـبر القـرون.

وعـلى مـا سـبق، فهنالـك تدفقـات عربيـة أخـرى في بـلاد النوبـة، فقـد بـدأت بوصـول الخليفـة العباسي المعتصـم إلى الملـك في بغـداد، ووصـول أحمـد بـن طولـون واليـاً عـلى مـصر ٨٦٨م، كأول وال مسـلم غـير عربـي حيـث قـام الخليفـة المعتصـم والـذي كانـت امـه مـن أصـول تركيـة باسـتبدال الكتائـب العربيـة في مـصر بأخـرى مـن المماليـك والأتـراك كمـا قـام بقطـع الأعطيـات التـي كانـت تـصرف مـن بيـت المـال عـلى الجنـد العـرب الذيـن منعـوا منـذ أيـام الخليفـة عمـر بـن الخطـاب مـن الاشـتغال بغـير الجنديـة حفاظـاً عـلى انضباطهـم وجاهزيتهـم العسـكرية فكونـوا طبقـة حاكمـة مميـزة في مـصر انحـصر وجودهـا في أروقـة الحكـم وفي الحاميـات والحصـون العسـكرية فظلـت عـلى بداوتهـا وتقاليدهـا العربيـة، وصحـب قطـع الأعطيـات تضييـق عـلى الوجـود العربـي في مـصر مما زاد مـن تدفـق الهجـرات العربيـة إلى بـلاد النوبـة في شـمال السـودان [٢٥٨].

---

(٢٥٨) ماكمايكل، بدون تاريخ: ٠٦١.

المبحث الثاني عشر

دور العلماء في الدولة السنارية

المبحث الثاني عشر

دور العلماء في الدولة السنارية

النشاط العلمي في الدولة السنارية:

انتشر العنصر العربي الاسلامي وسير ثقافيا واجتماعيا داخل الدولتين المسيحيتين وقد كانتا في حالت ضعف شديد كما أوضحنا، وقد سمحت الظروف بقيام نشاط علمي أسلامي قبل قيام سنار بكثير فقد ذكر أنه في خلافة هارون الرشيد قدم عليه جماعة من (بر السودان) ـ وهو ببغداد ـ وطلبوا إليه أن يرسل معهم علماء يعلمونهم امور دينهم، فأرسل معهم سبعة علماء من بني العباس ووصلوا إلى دنقلة وأقاموا بها، وتناسلت منهم ذرية كثير وكان أولاد عون الله السبعة يقومون بنشر العلم وتحفيظ القران واستمر ذلك إلى قيام دولة الفونج الإسلامية، وقد أشغل أحدهم وهو المسمى يالضرير منصب القضاء الإسلامي زمن الدولة المسيحية وكان جدهم يقوم بمهمة نشر المعرفة الإسلامية قبلهم ولا زالت قبور أولئك العلماء ظاهرة في منطقة (ودأبو حليمة) شمال الخرطوم.

وقبل قيام سنار ثلاثين سنة أسست مدينة (أربجي) أسسها عالم يقال الشيخ (حجازي بن معين) وكانت حاضرة علم وثقافة، وفي جهة الحلفايا وقبل قيام سنار كان الشيخ البندراوي الشامي يقوم بتحفيظ القرآن وتدريس العلوم الشريعة والعربية ’ وقد أخذ عنه علماء كثيرون، وقدم في زمنه الشيخ أحمد ولد زروق من اليمن، وجلس لتدريس العلوم الإسلامية وأخذ عنه أيضا علماء كثيرون وقد حضر معه الفقيه (جار النبي) وفي ذلك الوقت حضر الشريف (حمد أبودنانة) من المغرب يحمل العلم والتصوف، فأفاد منه خلق كثير، وهو أول من نشر الطريقة الشاذلية في السودان، ويعد من العلماء الرواد في السودان. كما أن الشيخ عبد الله القواسمي المعروف بعبد الله جماع قام بالتدريس وتحفيظ القران، وتنقل في ربوع السودان لهذه المهمة , هذا كله قبل أن يتصدى للقيادة السياسية ويوحد القبائل العربية في حلف مع الملوك الفونج، كل ذلك يؤكد بطلان إدعاء من يقول إن المجتمع المسلم في السودان

قبل قيام سنار كان في حالة جهل شديد يساوي في امته الدينية شعب (العنج) المسيحي في جهله بالأمور دينيه. فلم كان ذلك كذلك لما أمكنه التغلب عليه ثقافيا وسياسيا.

الحركة العلمية في سنار:

دور السلاطين: قامت في سنار حركة علمية قوية في ظل الدولة الإسلامية الفتية، وكان عماد تلك النهضة العلمية العلماء الرواد الذين جاءوا من أنحاء العالم الإسلامي، والسودانيون الذين درسوا، في الأزهر ومعاهد العلم في الحرمين الشريفين، ومن تلقوا العلم على الفريقين، وكانت هجرات العلماء إلى السودان تتخذ شكل جماعات في أحيان كثيرة، وقد شجع هجرتهم إلى السودان الأخبار التي ترامت إليهم عن مملكة سنار وما يجده العلماء فيها من إحتفاء وإكرام وتشجيع، وقد بدأت الحياة العلمية تأخذ طابعها المنظم في عهد الشيخ عجيب بن عبد الله جماع مؤسس دولة سنار. فقد شجع الشيخ عجيب حركة العلم والثقافة فبنى المساجد ودور العلم في أنحاء البلاد، وفي عهده الطويل قدم كثير من العلماء في مصر، والعراق والحجاز واليمن وبلاد المغرب، فرحب بهم وأغدق عليهم ليحببهم في المكوث في دياره حتى يقوموا ينشر العلم، وهو الذي بنى الرواقات لطلاب العلم السودانيون في الأزهر والحجاز فكان الطلبة يشبعون نهمهم في طلب العلم بالتنقل من شيخ الى شيخ دون أن يكلفوا مؤونة معيشتهم.

وكان الطالب قبل أن يسافر إلى خارج السودان لطلب العم يكون حافظا للقرآن وعلى علم ودراية بعلوم الدين و اللغة العربية، ثم بعد ذلك للإستزادة و التضلع في علوم الدين الأخرى، وكان بعضهم لا يكتفي بالذهاب مصدر واحد بل يجمع بين الحسنيين كما فعل الشيخ عمار بن عبد الحفيظ [٢٥٩] مثلا، حيث طلب العلم في مصر والحجاز معا [٢٦٠]وذلك مما يدل على الرغبة الأكيدة و التوجه الصادق لطلاب العلم في الإصرار على تحصيل العلم مهما كانت الصعاب.

ومن مظاهر اهتمام الملوك والسلاطين بطلبة العلم وتشجيعهم على الدراسة

---

(٢٥٩) مخطوطة كاتب الشونة ص ٥-٦ وشقير ص٩١٣ والسودان في قرن ص٠٦.

(٢٦٠) شقير ص٧١٤ والسودان في قرن ص٣٤ وتاريخ وحضارة السودان ص١٨٢ -٢٨٢.

والتحصيل، أنهم كانوا يقيمون الاحتفالات الحاشدة لتوديع أفواج الطلاب المسافرين إلى مصر أو الحجاز، وكانوا يخرجون بأنفسهم مشيعين تلك القوافل العلمية [٢٦١]، مما يؤكد في نفوس الطلاب روح المثابرة و الشعور بالمسئولية التي ألقتها البلاد على عاتقهم شعبا وسلاطين، ولا غرو فقد عرف سلاطين سنار ودارفور و كردفان أقدار العلماء واتخذوا منهم مستشارين ووزراء ؛ فقد روي أن الملك ناصر ين بادي عندما قتل كان المصحف بيمينه وموطأ ماك بشماله، وكان نساخا للكتب ذا خط جميل [٢٦٢] وكان سلاطين سنار يحبون العلماء ويجلونهم حتى صار لهم نفوذ يطغى في بعض الأحيان على نفوذ السلاطين أنفسهم فقد ساق كاتب الشونة طرفا من ذلك النفوذ عند حديثه عن الشيخ محمد بن إدريس ود نورين حين قال: (كان وافر الحظ عند الحكام والسلاطين والفلاحين [٢٦٣]، قاهرا للظالمين لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا حصل خوف في السلطنة تجتمع عنده الخلائق فم يقدر أحد أن يتعرض لواحد منهم [٢٦٤] وكان إلى جانب ذلك أن الملوك والسلاطين يهرعون إليهم في أيام الشدة طلبا لصالح دعائهم حتى تنجلي الكروب أو ينتصروا في الحروب [٢٦٥]، وقد بلغ تقدير السلاطين لعلماء حدا جعلهم يتخذون منهم الوزراء والمستشارين، فكان ولد العشا وزيرا للشيخ إدريس، أحد سلاطين سنار [٢٦٦]، كما كان الفقيه الكامل وزيرا للشيخ كتمور [٢٦٧] كما كان الفقيه محمد ود أبو الحسن وزيرا للشيخ محمد أبو لكليك، وكانت له كلمة نافذة في الملك [٢٦٨].

دور العلماء في التحصيل:

كانت عناصر تلك النهضة تقوم أولا على مجهودات العلماء السودانيين وغيرهم، وكان دور الأزهر الشريف بارزا، فهو أهم منارة علمية أفادت في نشر

---

(٢٦١) عمار بن عبد الحفيظ الخطيب ولد بسنار وسافر إلى مصر.. بطلب العلم بالأزهر الشريف حيث أخذ عن علمائه العلوم العقلية والنقلية وعلوم العربية وعلم التصوف وغيرها، انظر: الطبقات ص٧١١-٩١١.

(٢٦٢) دور الأزهر في السودان ص٣٥ وما بعدها.

(٢٦٣) طبقات ود ضيف الله ص٦ ودور الأزهر في السودان ص٦٢-٧٢.

(٢٦٤) نفسه ص٦٢.

(٢٦٥) لعله يعني بكلمة فلاحين عامة الناس لأنه استعمها في أماكن عديدة بهذا المعنى.

(٢٦٦) مخطوطة كاتب الشونة ص٦٦.

(٢٦٧) نفسه ص٢٢.

(٢٦٨) نفسه ص٢٧.

تلك النهضة العلمية، فقد تخرج فيه علماء سودانيون وهاجر منه إلى السودان علماء أجلاء كان لهم الفضل الكبير في نشر العلم والتصوف، فمن السودانيين الذين تخرجوا في الأزهر ورجعوا إلى أهلهم ليؤدوا دورهم في هذا المجهود الإسلامي العظيم الشيخ محمود أحمد العركي الذي تذكر الوثائق التاريخية أنه أول من قدم إلى الأزهر من الطلاب السناريين سنة ٩٣٥-٩٤٠هـ. وقد تتلمذ على الشيخين شمس الدين اللقاني، وناصر الدين اللقاني [٢٦٩]، وعندما عاد إلى السودان أنشأ خمس عشرة مدرسة لتعليم القرآن والعلوم الشرعية والعربية في منطقة النيل الأبيض [٢٧٠]، وكان من أولئك أولاد جابر الأربعة، وكان أكبرهم إبراهيم البولاد الذي تتلمذ على الشيخ البنوفري [٢٧١]..

و أيضا غيره من عماء المالكية في الأزهر [٢٧٢]، وعبد الرحمن بن جابر الذي درس أولا على أخيه إبراهيم ثم أكمل في الأزهر، ولما عاد إلى السودان أنشأ ثلاثة مساجد لدراسة العلم في بلاد الشايقية، وكان ينتقل بين هذه المساجد ويمكث في كل واحد منها أربعة أشهر، وتخرج على يديه من العلماء الأجلاء الشيخ دفع الله العركي الذي قام بمجهود كبير في نشر العلم في إقليم الجزيرة، كما تولى مهمة القضاء، كما ذهب إلى الحجاز وتولى الدريس وتولي التدريس في مقام الإمام مالك، ثم عاد إلى بلاده على الرغم من تعلق أهل الحجاز به وإلحاحهم عليه أن يمكث معهم ويبقى بينهم يؤدي دوره في تعليم الناس [٢٧٣] وممن درسوا على الشيخ عبد الرحمن بن جابر الشيخ النويري، وهو عالم فاضل تولى إلى جانب تدريس العلوم الشرعية والعربية – القضاء في عهد الشيخ عجيب المانجلك. وتخرج على يديه كل من الشيخ يعقوب بن بانقا، والشيخ المسلمي ولد أبي ونيسة، والحاج اللقاني، ومحمد بن عيسى سوار الذهب، والشيخ إبراهيم ود أم مريود، وصار كل منهم عالما مشهورا مسهما في الحركة العلمية [٢٧٤].

---

(٢٦٩) نفسه ص٢٤.

(٢٧٠) نفسه ص٢٤.

(٢٧١) نفسه ص ٤٢-٥٢.

(٢٧٢) شمس الدين اللقاني هو محمد بن حسن بن علي بن عبد الرحمن ولد بلقانه من قرى مصر في محرم سنة ٥٧٨هـ / ٠٧٤١م وكان عالما ومؤلفا في العلوم الشرعية والعلمية وكان أكثرها تحريراً في العلوم العقلية توفي سنة ٥٣٩هـ /٨٢٥١م أما أخوة ناصر الدين محمد بن حسن فولد سنة ٣٧٨هـ/ ٨٦٤١م وقد شارك أخوة في الأخذ عن شيوخه وقد درس في الأزهر أيضا كأخيه وجلس للفتوى بعد أخيه شمس الدين القاني ولم يكن كثير التأليف مثله مات ٨٥٩هـ/ ١٥٥١م الطبقات هامش ٣١١ نقلا عن ابن بابا ٥٣٣.

(٢٧٣) مخطوطة كاتب الشونة ٤٢١.

(٢٧٤) / محمد البنوفري المصري من جلة علماء مصر ومن اشتهروا بالزهد والورع أخذ عنه ناصر الدين اللقاني والتاجوري كما تتلمذ عليه كل من الأجهوري وسالم السنهوري وانفرد أخيرا برئاسة المذهب المالكي وقد توفي نحو ٨٨٩هـ/ ٠٩٥١م، نقلا عن ابن بابا ٠٤٣ الطبقات هامش ٦٤.

وذهب إلى الازهر كذلك الشيخ اسماعيل بن جابر بعد أخويه، وأكمل في الأزهر ثم عاد إلى السودان ليقوم بنشر ما تعلم، وكانت لأولاد جاير أخت تعد في مكانتهم العلمية هي الفقيهة فاطمة بنت جابر، وقد أخذ عنها ابنها الشيخ محمد بن سرحان المعروف (بصغيرون) كما أخذ عن أخواله ثم ذهب إلى الأزهر ليمتع نفس بالاستزادة كما فعل من قبله، ولما عاد من مصر أخذ ينشر العلم في بلاد الجعليين في شندي التي ولد وتربى فيها، وأنشأ مسجدا هناك في (قوز المطرق) الذي عرف فيما بعد بـ(قوز العلم)، لأن طلاب العلم قصدوه في أفواج كبيرة ليدرسوا على الشيخ صغيرون، وقد تخرج على يديه علماء كثيرون، منه ابنه الشيخ الزين، والشيخ علي ودبري،، وقد تلقى العلم عليه الشيخ أرباب بن عوف المعروف بأرباب العقائد المتوفي ١١٠٢هـ/١٦٩١م، وهو مؤسس مدينة الخرطوم، وقد ذكر ود الضيف الله أن عدد تلاميذ أرباب العقائد قد بلغ ألف طالب ونيفا من دار الفونج، إلى دار برنو تلاميذه وتلاميذ تلاميذه) [٢٧٥].

ومن أولئك العلماء أيضا الشيخ عبد الرحمن حمدتو الخطيب، فقد أكمل تعليمه في الأزهر ورجع للسودان ليقوم بدوره في أداء الأمانة العلمية، وقد تخرج على يديه مجموعة من العلماء؛ منهم الشيخ عبد الله الأغبش الذي أقام مسجده في حلة الغبش غرب بربر وأصبح قبلة لطلاب العلم، ومنهم الشيخ ابراهيم بن عبودي المعروف بالفرضي، سمي بذلك لطول باعه في علم الفرائض [٢٧٦]، ومن علماء سنار الشيخ علي بقادي الذي قال عنه كاتب الشونة: (اشتهر بالتوحيد في زمانه وفاق من كان قبله ومن في أوانه، وهو ذو باع في هذا الفن وقد ضربت إليه أكباد الإبل من كل فج)[٢٧٧].

ومن العلماء الذين تخرجوا في الأزهر في تلك الفترة الشيخ عمار عبد الحفيظ، و الشيخ عمار بن ابراهيم، عبد الرحمن بن ابراهيم بن أبي ملاح الكناني والد الشيخ خوجلي المشهور بأورق توتي، وقد تتلمذ في الأزهر على كبار أئمة المالكية كالشيخ علي الإجهوري [٢٧٨]، كما درس في الأزهر أيضا اشيخ علي ود

(٢٧٥) طبقات ود ضيف الله ص٦ والسودان عبر القرون ص٧٦.

(٢٧٦) طبقات ود ضيف الله ، ص ١١١.

(٢٧٧) نفس المصدر ٢١١ ,

(٢٧٨) المصدر نفسه ص، ١٣.

عشيب القاضي الذي درس على الشيخ البنوفري [٢٧٩]، ودرس في الأزهر أيضا الشيخ محمد جمال الدين المعروف بالحلاوي الذي اشتهر بالفتاوي واستخراج الأحكام[٢٨٠].

ومن علماء سنار الذين شاركوا في هذه النهضة العلمية الشيخ خوجلي عبد الرحمن و الفقيه حمد ود حنيك و الفقيه محمد ضيف الله، و الفقيه هارون ود أبي حصي، والشيخ فرح ود تكتوك، والصليحابي[٢٨١] و الشيخ مكي النحوي الفريعابي صاحب المجربات له شرح على المختصر وعدد من كتب الفقة المتداولة في ذلك الزمان كما كان له تلاميذ حملوا علمه رحمه الله تعالى [٢٨٢] وغير وهؤلاء كثير، وقد درس كثير منهم على أجلة علماء الأزهر وحازوا الإجازات العلمية [٢٨٣]، ونشر أولئك العلماء العلوم الاسلامية في السودان، ووضعوا منهاجا لدراستها، وتضاعفت مجهوداتهم على مر السنين عن طريق تلاميذهم، واتصلت الحركة العلمية هذه بحركة تكوين المجتمعات حين أنشأت القرى والمدن حول مساجد و خلاوي أولئك الشيوخ، فانتشرت مدارس العلم في الشايقية ودنقلا و بربر وسنار و القضارف والدامر و أم ضوا بان وغيرها من مناطق السودان[٢٨٤].

جهود العلماء في التأليف و الشروح:

وكان من نتاج هذه الحركة العلمية مؤلفات كثيرة تعد من ركائز هذه النهضة العلمية التي انتظمت الدولة السنارية، قام بذلك جملة من العلماء الأجلاء انتظمت كل العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية، فجاءت تلك المؤلفات في صورة شروح وحواش، وتآليف قائمة بذاتها ؛ حيث الفت كتب ورسائل، وكان النساخون يتلقفون كل ما يؤلف ويعكفون على نسخه.

---

(٢٧٩) نفس المصدر ص٢٢، ٥١١ هذا الرجل كتب وصفا لرحلته إلى الأزهر ثم إلى الحجاز ثم إلى مصر راجعا ثم إلى السودان تعد نصا ناضجا في آداب الرحلات ومن الطريف أنها لا تعمد إلى السجع / دور الأزهر في السودان ص٥٣.

(٢٨٠) مخطوطة كاتب الشونة ص٣٥.

(٢٨١) نفس المصدر والصفحة.

(٢٨٢) طبقات ود ضيف الله ص٥١١.

(٢٨٣) طبقات ود ضيف الله ص٤١١.

(٢٨٤) نفس المصدر ص١٧.

أصحاب المؤلفات من الشيوخ و العلماء:

فقد ذكر أن للشيخ أرباب العقائد[٢٨٥] له مؤلفا في أركان الإيمان سماه الجواهر [٢٨٦]، وألف الشيخ ابراهيم بن عبودي الفرضي كتاب الفريضة [٢٨٧]، وألف الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم بن أبي ملاح الكناني منظومة في التوحيد [٢٨٨]، وشرح الشيخ المضوي [٢٨٩] منظومة في علم التوحيد، قال ود ضيف الله رحمه الله في معرض حديثه عن شرحه هذ المنظومة مثنيا على شرحه عليها :

(إن شرحه لها أوسع من شرح الشيخ سعد الدين التفتازاني على العقائد النسقية)[٢٩٠]، وشرح مختصر خليل كل من ضيف الله ين علي [٢٩١]، والشيخ مختار حمودة ، وحشاه كل من محمد ين علي بن حمد الأغبش و حمودة التنقاري [٢٩٢]، والف عبد الرحمن بن جابر كتابا في الفتاوى و الأحكام [٢٩٣]، وشرح كل من محمد المضوي، ومكي النحوي الفريعابي الرباطابي [٢٩٤]، رسالة أبي زيد القيرواني، وشرح الشيخ محمد بن بري أم البراهين الكبرى و الصغرى ووضع حاشية عليها، وألف محمد بن المضوي كتابه العمدة كما شرح الأمالي اسراج الدين بن عثمان الأوشي [٢٩٥] ووضع حمودة الكاهلي [٢٩٦] شرحين لمقدمة

---

(٢٨٥) دور الأزهر في السودان ص ٠٣-١٣.

(٢٨٦) أرباب العقائد هو أرباب بن علي بن عون الخشن ويسمى بأرباب العقائد درس الفقه والعقائد، وكان متصوفا توفي سنة ٢٠٧١م بسنار الطبقات ص١٣٣.

(٢٨٧) طبقات ود ضيف الله ص١٣.

(٢٨٨) نفس المصدر ص٢٢.

(٢٨٩) نفس المصدر ص٥١١.

(٢٩٠) درس المضوي علم الكلام والنحو والأصول والمنطق وكانت شروحه على أم البراهين أربعة – العمدة، والوسط، والصغير، والحاشية، وله شرحان على الأمالي (يقول العبد في بدء الأمالي) وله شرح على الأجرومية، وشرح لعقيدة الرسالة، توفي بقوز رجب بمديرية كسلا وهو عائد من الحج سنة ٥٩٠١هـ وهي سنة المجاعة المشهورة (بأم لحم) الطبقات ص٢٢-٣٣ وتراث الشعر السوداني ٣١.

(٢٩١) المصدر السابق ص٢٣١.

(٢٩٢) ضيف الله بن علي ولد بحلفاية الملوك وحفظ القرآن بجامعها، وقرأ الرسالة ومختصر خليل والتوحيد والنحو، وكان متصوفا توفي سنة ٥٩٠١هـ الطبقات ٨٠١-٩٠١.

(٢٩٣) دور الأزهر في السودان ٥٩١.

(٢٩٤) طبقات ود ضيف الله ص١٣١.

(٢٩٥) مكي الرباطابي الفريعابي العباسي يقال عنه إنه جمع فنون عصره وله شرحان على السنوسية كبير وصغير، كما له شرح على رسالة أبي زيد القيرواني. توفي بأرض الجزيرة الطبقات ص٣٣. وله عقب بالمناصير و الرباطاب وفي المناصير بحلة الحقنة وحلة البرجوب ويسمى مكي النحوي صاحب المجربات، ومجرباته ورثها الخال محمد ابراهيم قمر الدين رحمه وكان يحفظها و لا يمكن ـ أحدا من الاطلاع عليها وقد حاولت ذلك منه مرارا رحمه الله تعالى رحمة واسعة. صاحب البحث، يتصل نسبنا به من جهة الوالدة .

(٢٩٦) لا ندري في أي فن كان كتاب العمدة هذا.

السنوسية، كما شرحها كل من غانم أبو شمال و عبد القادر البكاي ومحمد بن عدلان الشايقي، ومكي النحوي الرباطابي، وقد ذكر أن شرح الأخير جاء في أربعين كراسة، كما شرح كل من المضوي محمد المضوي و عيد الرحمن ين حمد الأغبش الجزرية في التجويد والقراءات [٢٩٧]، وقد ألف الفقيه محمد ود ضيق الله كتاب طبقات الأولياء و الصالحين،وشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله وله نبذة في السيرة [٢٩٨].

ما ذكرناه مجرد أمثلة لجهود بعض أولئك العلماء في التأليف و الشرح، وكان المقصود من حركة التأليف أن يعينوا تلاميذهم في كل المستويات على فهم و استيعاب للمادة العلمية، لأن بعض الشروح المجلوبة معقدة لا يتناسب مستوى شروحها مع مستويات طلبة العلم في بعض المراحل الدراسية، فقام هؤلاء العلماء بتبسيط تلك الشروخ لتناسب مستوى طلابهم العلمي وفهمهم، وهذا اسلوب تربوي مهم أدرك أهميته أولئك العلماء رحمهم الله تعالى. و قد انتشرت تلك الكتب في انحاء البلاد بسبب نشاط النساخ وشدة الإقبال عليها من العلماء وطلبة العلم معا، ومن المؤسف أن تلك الكتب لم يصل ألينا منها إلا النزر اليسير[٢٩٩]، والذي حال دون وصول تلك المؤلفات إلينا ينحصر في عدد من الأسباب أهمها:

أولا: حملة الدفتردار في أوائل الفتح التركي التي لم تفرق بين الحاني والبري ؛ فقتلت حتى العلماء وطلابهم، وأحرقت مساجدهم وخلاويهم وخزائن الكتب اين ما وجدوها، وفر بعضهم تاركين كتبهم ورائهم نهبا للإهمال و الضياع.

ثانيا: أمر الإمام المهدي بحرق كل الكتب المتداولة عدا القرآن الكريم والراتب و الصحاح من كتب السنة، وهذا من أكبر أخطاء المهدية ؛ إذ قضت بذلك على ما تبقى من ثروة علمية عظيمة حرم منها السودان والمكتبة الاسلامية حتى أصبحنا لا نعلم منها إلا بعض أسمائها.

(٢٩٧) حمودة الكاهلي برع في علم المنطق وعلم الكلام توفي سنة ٢٣٢١هـ الطبقات ص٣٤.

(٢٩٨) دراسات في تاريخ السودان د. يوسف فضل ص١١١-٢١٢ ودور الأزهر في السودان ص٥٣.

(٢٩٩) مخطوطة كاتب الشونة ص٧٦.

ثالثـا: مناخ السودان المتقلب لا يساعد على حفظ الوثائق الورقية و المقتنيات من الكتب و الوثائق، فهو مناخ متقلب بين أمطار غزيرة ورياح موسمية عاصفة، وجفاف وحرارة محرقة.

رابعـا: ضعف المستوى الثقافي العام في السودان في التعامل مع حفظ الوثائق، وقد أضر الورثة تلك الذخائر العلمية، التي آلت إليهم من آبائهم العلماء ؛ فلم يقدروا تلك المقتنيات ما تستحق من الاهتمام و الحماية الحفظ، حيث لم يجدوا فيها فائدة مادية، فأنا أعرف أهل بيت كانت في حيازتهم مجموعة من الكتب آلت إليهم من جدهم الأعلى نقبوا فيها وبحثوا ليجدوا تسجيلا لأرض أو ساقية فلما لم يجدو بغيتهم ترجو تلك الكتب نهبا للضياع والتلف.

دور العلماء في التدريس:

يشكل طلاب العلم ركنا مهما من أركان النهضة العلمية، فقد ذكر أن الشيخ صغيرون جلس في حلقة أبيه من بعد رحيله فشدت إليه الرحال وضربت إليه أكباد الإبل، وقد طال عمره حتى ضمت حلقته الآباء و الأجداد، وبلغ درسه خمسين ختمة، وبلغت حلقته ألف طالب، وأصبح تلاميذه شيوخ الإسلام في السودان[٣٠٠]، ويروى أن الشيخ ابراهيم البولاد أن أكبر أولاد جابر تخرج على يده أربعون عالما من علماء السودان الأجلاء الذين أصبحوا أقطابا وبدورا يطوفون في السودان يبثون العلم وأنوار الشريعة [٣٠١]، كما يروى أن الشيخ محمد المضوي قد انتقل إلى شندي وأقام هناك ليدرس الفقه المالكي ؛ المختصر وشروحه و الرسالة وعلوم اللغة والبلاغة والتفسير و علوم الحديث، وقد بلغ عدد طلبته ثلاثمائة طالب [٣٠٢]، وقد مر بنا أن الشيخ أرباب العقائد قد قدر عدد من أخذوا عليه العلم بألق ونيف، وقد جمع بعض العلماء إلى جانب العلوم الشرعية و اللغة علوما أخرى ؛ كالفلسفة والطب والكيمياء و المعرفة ببعض غات الأمم الأخرى كالشيخ حجازي بن معين [٣٠٣].

(٣٠٠) طبقات ود ضيف الله ص١٣ ودور الأزهر في السودان ص١٣.

(٣٠١) طبقات ود ضيف الله ص٧٢.

(٣٠٢) نفس المصدر ص٢٣١.

(٣٠٣) نفس المصدر ص١٣.

صلة العلماء بالأزهر الشريف:

لم ينفصل اتصال تلك النهضة العلمية بالأزهر حتى بعد استقرار العلماء بالسودان، فقد كانوا على تواصل مع اساتذتهم وزملائهم في الأزهر فكلما أشكلت مسألة شرعية أو ثار خلاف بينهم حول حكم فقهي كتبوا على علماء الأزهر يستفتونهم فيما اشكل عليهم، أو يطلبون إليهم ترجيح رأي، ومن أمثلة ذلك ما روي أن الخلاف احتدم بين علماء سنار في قضية حكم فيها القاضي عبد الرحمن بن الشيخ النويري أحد خريجي الأزهر على امرأة تبرعت بثلث مالها قاصدة بذلك ضرر زوجها فحكم برد المبلغ، فنازعه العلماء وكتبوا للشيخ الأجهوري (٣٠٤)، فأجاب بصحة الحكم مراعاة للعرف والمصلحة (٣٠٥).

وعندما دخل التبغ إلى مصر اختلف فيه علماء الأزهر الشريف آنذاك منهم من حرمه ومنهم من أباحه، و انتقل نفس الخلاف الذي أثير في الأزهر إلى السودان حيث احتدم الخلاف وكثرت الآراء بين العلماء حتى أفتى الشيخ ادريس ود الأرباب على حرمته معارضا الشيخ الأجهوري الذي أباحه متفقا في ذلك و مؤيدا الشيخ اللقاني (٣٠٦) فيما ذهب إليه من حرمة التبغ، أما الشيخ عبد الوهاب (رجل أم شميل) فقد عارض زميله الشيخ إدريس وأيد الشيخ الأجهوري، فلما اشتد المناظرات بين العالمين السودانيين كتب الشيخ ادريس رسالة إلى الشيخ علي الأجهوري وحملها رسولا خاصا من عنده (٣٠٧) يوضح فيها اعتراضه على إباحة التبغ ويؤيد ما ذهب إلية من حرمته بالحجج والبراهين، وكانت بينه وبين الشيخ علي الأجهوري صلات سابقة ومكاتبات.

ومن أمثلة تلك الصلات أيضا مايروي من أن الشيخ إبراهيم صغيرون أرسل جارية هدية إلى العالم الأزهري الشيخ محمد الخراشي (٣٠٨) لصلات سابقة

---

(٣٠٤) دور الأزهر في السودان ص٦٣.

(٣٠٥) مخطوطة كاتب الشونة ص٢٧.

(٣٠٦) هو علي بن زين العابدين محمد بن أبي محمد زين الدين عبد الرحمن الأجهوري نسبة إلى أجهور الورد قرية بمصر ولد سنة ٦٦٠١هـ وكان شيخ المالكية بالقاهرة كما كان محدثا جمع إلى العلم العمل به أخذ عنه كثير من علماء المالكية في عصره له مؤلفات وشروح كثيرة منها ثلاثة شروح على مختصر خليل وله رسالة في الدخان اسمها (غاية لحل شراب ما لا يغيب العقل من الدخان) الطبقات هامش ٢٥نقلا عن (المحبي: ٣/ ٧٥١ -٨٥١).

(٣٠٧) طبقات ود ضيف الله ص ٤١١ ودور الأزهر في السودان ص٣٤.

(٣٠٨) هو الشيخ إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني متصوف، مالكي نصري نسبة إبلقانه من أعمال البحيرة له مؤلفات كثيرة وشروح في الفقه والتوحيد توفي سنة ٠٤٠١هـ الطيقات هامش ٢٥ نقلا عن (الزركلي جـ/ أ١/ ٠٢).

بينهما، فقبلها الشيخ وأرسل إليه نسخة من شرحه الكبير على مختصر خليل (٣٠٩) وكانت حركة الطلاب بين السودان ومصر من أقوى الوسائل التي ساعدت على انسياب الرسائل بين الطرفين، وأثر الأزهر كان علميا أكثر منه صوفيا، ولم تكن تلك الصلات محصورة في دائرة العلماء بعضهم ببعض بل تعدتها إلى أكثر من ذلك حيث قامت الصلات اودية بين سلاطين السودان والأزهر الشريف وعلمائه، فكان السلاطين في سنار يرسلون وفودا محمة بالمال والذهب والرياش إلى الأزهر بعد كل موسم حصاد (٣١٠) وكان بعضهم يراسل علماء الأزهر بصفة شخصية ويجزل لهم العطاء ويرغبهم في السفر إلى السودان ليشاركوا في النهضة العلمية هناك، وقد سجل الشيخ عمر المغربي مفتي الجامع الأزهر ذلك في قصيدتين اثنتين (٣١١) ومطلع الأولي:

أيا راكبا يسري على متن ضامر ** إلى الغربي يهدي نحوه طيب الذكر

ويطوي إليه شقة البعد والنوى ** ويقتحم الأوعار في المهمة القفر

وينهض من مصر وشاطئ نيلها ** وأزهارها المعمور بالعلم والفكر

لك الخير إن وافيت سنار قف بها ** وقوف محب وانتهز فرصة العمر

إلى أن يقول:

إلى حضرة السلطان والملك الذي ** حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر

هو الملك المنصور (بادي)(٣١٢) الذي ** له مناقب قد جازت عن العد والحصر(٣١٣)

دور النساء في الحركة العلمية:

لقد شملت النهضة العمية التي عمت السودان في العهد السناري مجتمع النساء

(٣٠٩) هو الشيخ حمد ود أم عقرب الطبقات ٤٥-٦٥.

(٣١٠) هو محمد بن عبد الله الخراشي المالكي نسبة إلى قرية (خراش) بالبحيرة له مؤلفات كثيرة وشروح علي الفقه المالكي منها شروحه على مختصر خليل (الشرح الكبير والصغير) كما شرح السنوسية توفي بالقاهرة سنة ٦١٠١هـ وقد كان استاذا من أساتذة المالكية العظام رحمه الله الطبقات ٧٧هـ نقلا عن (سلك الدر: ٤/ ٢٦ – ٣٦).

(٣١١) طبقات ود ضيف الله ص٩ وما بعدها وكذلك السودان عبر القرون.

(٣١٢) شقير ص٨٩٣.

(٣١٣) لعل هناك غيرها ولم يصل إلينا مع ما فقد.

أيضـا، فقـد كانـت خـلاوي القـرآن في دنقـلا والشـايقية والدامـر، والـشرق، وكردفان،، ودارفـور، تجمـع كثـير منهـا بـين البنـت والولـد، وممـا يـروي أن أكثـر تلاميـذ العالم حمـد بـن عـلي المشـيخي المعـروف بـود أم مريـود ١٠٥٥-١١٤٣هــ مـن[٣١٤] النسـاء، ويمـدح بأنـه علـم نسـاء قبيلـة فـزارة وجعـل منهـن عالمـات متفقهـات في الديـن [٣١٥]

، وكان في مقدمـة أولئـك النسـوة الدارسـات بنـات العلمـاء، حيـث نجـد كل نسـاء البيـوت الدينيـة يحفظـن قـدرا مـن القـرآن ويعرفـن مـع ذلـك شـئون دينهـن معرفـة تامـة، ومنهـن مـن تعمقـت في الدراسـات الإسـلامية كفاطمـة بنـت جابـر التـي مـر ذكرهـا، وتوصـف بأنهـا كانـت نظـيرة لإخواتهـا الذيـن تخرجـوا في الأزهـر [٣١٦]، ويـروي أنهـا حفظـت القـرآن في سـن مبكـرة (وكان عمرهـا اثنتـي عـشرة سـنة). وكانـت تقـوم بتعليـم الصبيـة في مسـجدها بالدفـار في دنقلـة وتنفـق عليـه مـن مالهـا الخـاص وكذلـك كانـت بنتهـا آمنـة فقيهـة مثلهـا، وكانـت لآمنـة هـذه بنـت فقيهـة في الديـن اسـمها (قوتـة)، وكلهـن مارسـن تعليـم البنـات والصبيـان، وتخـرج عـلى أيديهـن علمـاء نابهـون نهضـوا لنـشر العلـم في دنقلـة، وشـندي وإقليـم الجزيـرة [٣١٧].

وذكـرت أيضـا في جملـة النسـاء العالمـات عائشـة بنـت محمـد الغـزال بـن إبراهيـم الفـرضي، فقـد أنشـأت تلـك السـيدة الفاضـة مدرسـة عـلى النيـل الأبيـض لتعليـم البنـات والصبيـان، ومـن بـين مـن درس عليهـا الشـيخ خوجـلي العـام السـوداني المشـهور المتـوفي سـنة ١١٥٥هــ [٣١٨]، ومنهـن أيضـا بتـول الغبشـة والـدة الشـيخ هجـو وأخـت اشـيخ هجـو الكبـير جـد اليعقوبـاب المشـهورين بالعلـم والتصـوف، هـذه السـيدة أنشـأت مدرسـة في سـنار لتعليـم الأطفـال من الجنسـين وكانـت تصرف عليهـا مـن حـر مالهـا، وعـرف عنهـا حفظهـا الجيـد للقـرآن ومعرفـة التجويـد، وكانـت إلى جانـب ذلـك ماهـرة في نسـخ الكتـب ممـا زاد مـن شـهرتها واتسـاع صيتهـا [٣١٩]، تلـك الحركـة العلميـة أخرجـت علمـاء سـودانيين غـير الذيـن درسـوا في

(٣١٤) المعني جبيل أم علي في شمال السودان.

(٣١٥) المصدر نفسه ص ١٦.

(٣١٦) دور الأزهر في السودان ص٥٤.

(٣١٧) مخطوطة كاتب الشونة ص ٥-٦.

(٣١٨) الموافق سنة ٦٥٦١م.

(٣١٩) طبقات ود ضيف الله ص٧٦.

الأزهـر فعـلا صيتهـم، وقصدهـم الطـلاب مـن شرق إفريقيـا وغربهـا، بـل ومنهـم مـن ذهـب إلى غـرب إفريقيـا يعلـم هنـاك فأصبحـت سـنار يذلـك مركـزا رئيسـيا للعلـم في داخـل إفريقيـا [٣٢٠].

(٣٢٠) نفس المصدر ص٦.

المبحث الثالث عشر

السلالات البشرية التي قدمت للسودان

المبحث الثالث عشر

السلالات البشرية التي قدمت للسودان

يرجـع تاريـخ وجـود الإنسـان في السـودان إلى زمـان قديـم جـداً يرجـع إلى أكثـر مـن ٧ ألـف عـام [٣٢١]، وعـلى مـدار التاريـخ ظلـت تتوافـد مجموعـات بشريـة إلى السـودان بشـكل مسـتمر بـلا انقطـاع، وأسـهمت إسـهاماً مبـاشراً في صناعـة حضـارة إنسـانية شـهد لهـا التاريـخ ؛ غـير أن مـن المؤكـد أنَّ السـمة الغالبـة لهـذا التوافـد ليـس الثبـات بـل الحركـة والتنقـل. ويعتـبر أول وجـود ذي بـال للحضـارة كان في بـلاد النوبـة نشـأ عمـن عرفـوا عنـد الدارسـين بالمجموعـات الحضاريـة " الأولى الثانيـة والثالثـة "، ويرجـع هـؤلاء الدارسـون أنهـم ينتمـون إلى جنـس البحـر المتوسـط، وأن كان يشـوبهم شـيئاً مـن العنـصر الزنجـي.

وهـذه المجموعـات – يعـد تعرضهـا إلى تدخـلات فرعونيـة وحاميـة وغيرهـا مـن العنـاصر البشريـة – انحـدرت الفصائـل التـي انشـأت الحضـارة في السـودان القديـم وهـم النوبـة والعنـج. وفي الـشرق سـكنت العنـاصر التـي عرفـت عنـد العـرب باسـم البجـة، وتعرضـوا كذلـك للاختـلاط بسـكان النيـل والمصريـين، كمـا جـاء في المخططـات المرويـة والكوشـية والفرعونيـة، كمـا خالطـوا الأحبـاش، وخالطهـم العـرب في هجـرات قديمـة لقبائـل حمـير. أمـا الغـرب فقـد توافـدت إليـه مجموعـات كبـيرة مـن وادي النيـل عـبر دارفـور غربـاً وحتـى تشـاد ونيجيريـا، وبالقـدر نفسـه كانـت هنالـك هجـرات عكسـية مـن غـرب إفريقيـا إلى دارفـور.

أمـا الإقليـم الجنوبـي فقـد شـهد تحـركات سـكانية امتـدت مـن بدايـات القـرن الميـلادي الأول ؛ فقـد وفـدت مجموعـة تعـرف باسـم " اللـول " سـكنت عـلى امتـداد بحـر الغـزال – سـابقة لمجـيء الدينـكا والنويـر – وأصـول هـذه المجموعـة زحفـت مـن الشـمال غالبـاً مـن كردفـان [٣٢٢].

(٣٢١) امـل عمـر أبـو زيـد، الملامـح العامـة لتاريـخ السـودان القديـم، مركـز محمـد بشـير عمـر للدراسـات السـودانية، دار الزهـراء، الخرطـوم، ٧٩٩١م، ص٠٣٢.

(٣٢٢) أحمد محمد علي الحاكم، هوية السودان الثقافية، منظور تاريخي، دار جامعة الخرطوم للنشر ٠٩٩١م، ص١٣ – ٥٣.

أما عن المجموعات التي تتحدث اللغات النيلية جنوب السودان اليوم، كالشلك والباريا والنوير والأنواك والأشولي، فقد انحدرت حسبما يشير التراث الشفهي المنقول إلى مواطنها الحالية من أصول أولية وفدت إلى المنطقة من جنوب غرب الحبشة، وبالتحديد ما بين نهر " أومو " وأعالي نهر البيبور [٣٢٣]. إن هذا الانحدار اتسم بالحركة وعدم الاستقرار نسبة لطبيعة المنطقة، ولم يستقر وجودها إلا بعد أن أنشأ الفونج سلطة مركزية قوية توغلت جنوباً في الأحراش إلى " غندكرو "، ولكن تعرض هذه المجموعات للتأثير العربي كان ضعيفاً، ويكاد يكون منعدماً بسبب توقف حركة الفتح الإسلامي لدولة الفونج.

لا شك أن لموقع السودان الفريد الذي يتوسط القارة ويعتبر معبراً حضارياً وثقافياً بين الشمال والجنوب، ومنطقة جذب سكاني أثر كبير في تنوع السلالات التي يضمها هذا الإقليم من ناحية، وتعرضه لمؤثرات ثقافية من ناحية أخرى. وقد أمكن تقسيم هذه السلالات إلى خمس مجموعات:

المجموعة الأولى: ومصدرها إقليم تبتي وما يليه من ناحية الغرب إلى أواسط الصحراء الكبرى وهي تضم القرعان والبدايات والزغاوة وهي تمتد بهذا الترتيب من الشمال إلى الجنوب حتى المنحدرات الشمالية لجبال مرة.

المجموعة الثانية: ومصدرها إقليم النوبة وهي الميدوب ومركزهم جبل ميدوب على مسيرة ستة أيام شمال شرقي الفاشر والتنجر وتقع ديارهم إلى الشرق من جبل مرة وقيل أنهم كانوا يحكمون البلاد ثم أغتصبها منهم الفور.

المجموعة الثالثة: وهي التي تأثرت بالهجرات والثقافة النوبية ولكنها لم تتأثر كثيراً بالدماء النوبية وهي تتألف من البرتي ومركزهم جبل (تقابو) على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشمال من الفاشر والداجو ومركزهم جبل داجو.

المجموعة الرابعة: وهي المجموعة الغربية ومصدرها الأقاليم الجنوبية من ليبيا أو ما كان يعرف باسم السودان الفرنسي الممتد حتى حوض نهر النيجر. وتشتمل على عناصر من الفلاتا والميمة والبرتو والتكارنة المراريت وينتشرون بين كبكابية وكلكل.

(٣٢٣) أحمد محمد علي الحاكم، هوية السودان الثقافية، ص٤٣.

المجموعة الخامسة: وهي أقدم هذه المجموعات وتضم خمسة قبائل هي القمر ومركزهم يقع على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشمال من كلكل ويليهم تماماً من جهة الغرب والجنوب الغربي الارتجا وهم في نظر البعض جماعة واحدة ثم المساليت ويقعون بين الغور شرقاً ووادي غرباً ودار تاما شمالاً ودار سولا جنوباً. وأخيراً الغور ووطنهم الرئيسي الجبال ومركزهم جبل مرة والأرجح أنهم أقدم هذه العناصر جميعاً ولعل هذا ما يبرر تسمية الإقليم باسمهم[٣٢٤].

هذا بالنسبة لقبائل دارفور التي تحركت في أزمان متفاوتة لتكون ذات هذه القبائل مساحات وجيوب تضمها في منطقة القضارف والحدود بينها وبين إثيوبيا، أما الشمال فقد تأثر بالعرق العربي الذي صبغ دماءهم من قديم، ويحتفظون بأنسابهم العربية، خلافاً لنوبة الشمال من المحس والسكوت والحلفاوين والدناقلة فإن احتفظوا بلسانهم فقد كانوا معبراً سلسا ومبلغا أمينا للدين الإسلامي واللغة العربية، فكان منهم دعاة مرموقين حملوا لواء الدعوة بلغوا الرسالة في أصقاع مختلفة من أجزاء السودان.

ولما كان السودان هو أكبر الأقطار الإفريقية والعربية مساحة ؛ فإن هذه الرقعة الواسعة تضم العديد من الأجناس والمجموعات العرقية والسلالات ذات الأصول السامية والحامية والزنجية، والتي امتزجت واختلطت عبر مئات السنين، وكوَّنت المجموعة العرقية والقبلية المعروفة اليوم، وتؤكد الدراسات أن بالسودان الآن اكثر من ٥٧٢ قبيلة تتفرع إلى عشائر وبطون لا حصر لها [٣٢٥].

اهتمام السلاطين بالعلم و الدعوة:

لقد اهتم ملوك سنار بالتكوين الثقافي لسلطنتهم الإسلامية حيث اهتموا بالعلم فأقاموا الرواق السنارية في الأزهر لاستيعاب طلاب مملكتهم المبتعثين إلى هناك، وشجعوا هجرة علماء الدين الإسلامي إلى السودان للدعوة ونشر العلم. كما أنشأ السلطان بادي الأحمر احد سلاطين مملكة سنار وقفاً في المدينة المنورة في الحجاز لاستقبال الزوار من مملكته عند زيارتهم للأراضي المقدسة،

---

(٣٢٤) شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته. القاهرة ٣٠٩١م، ج١ ص٨٤ – ٩٤، محمد عوض محمد: السودان الشمالي القاهرة ١٥٩١م ص٦٦٢ – ٠٧٢. وأيضاً: Mac Michael., A History of the arabs in the Sudan , Cambridge ٢٢٩١ , pp. ٢٥.

(٣٢٥) الدكتور التجاني مصطفى محمد صالح، عوامل تشكيل الشخصية السودانية (مقال)، مجلة الثقافة السودانية، العدد ٨٢ مايو ٥٩٩١م.

ولا يـزال جـزء مـن آثـار هـذه الاوقـاف قائمـة هنـاك حتـى اليـوم. وايضـاً انتشرت في شـتى ربـوع مملكـة سـنار الخـلاوي التـي تعـرف أيضـاً بالكتاتيـب لتحفيـظ القـرآن الكريـم ودراسـة الفقـه وعلـوم اللغـة العربيـة... وغيرهـا.

وقـد كان لتحالـف الفونـج في جنـوب شرق النيـل الازرق بقيـادة عبـد اللـه جمـاع اثـر كبـير في تكويـن البنيـة الثقافيـة والفكريـة لسـلطنة سـنار الإسـلامية، فألـق عـلى رعاياهـا لقـب السـنانير تيمنـاً بعاداتهـم وتقاليدهـم الإسـلامية. وقـد نقـرأ كل البنيـة الثقافيـة في بنـود التحالـف التـي جـاءت صياغتهـا عـلى النحـو التـالي:

- بعـد سـبع قـرون مـن اتفاقيـة البقـط، وسـقوط الممالـك المسـيحية، أصبحـت الغلبـة للديانـة الإسـلامية فـكان لابـد مـن وجـود نظـام سـياسي وتشريعـي جديـد يعـبر عـن القـوى الاجتماعيـة الجديـدة ذات الديانـة الجديـدة ينظـم حياتهـا الاجتماعيـة والدينيـة وفقـاً لمعتقداتهـا.
- حمايـة القوافـل التجاريـة التـي تمـر بـالأراضي السـودانية في طريقهـا إلى صعيـد مـصر.
- تنظيم ملكية الأرض، وتوفير الأمن.
- تأسيس مملكة إسلامية على غرار سقوط الممالك المسيحية.

إن الموقـع الاسـتراتيجي لسـلطنة سـنار سـاعد في تطـور مفهـوم الدولـة الحديثـة في السـودان، لأنهـا ضمّـت في طياتهـا حـدود المملكتـين السـابقتين بعـد سـقوطهما (مملكة المقـرة وعلـوة). وتمتـد سـلطنة سـنار مـن الشـلال إلى الثالـث إلى أقصى جبـال فازوقلي شـمالاً وجنوبـاً، ومـن سـواكن عـلى البحـر الأحمـر إلى النيـل الأبيـض شرقـاً وغربـاً، وكان الحـد بـين مملكـة سـنار ومشـيخة قـرى (الحلفايا) مدينـة أربجـي التـي تقـع بقـرب المسـلمية، ومـن حيـث التنظيـم الإدراي فالجـزء الجنوبـي يتبـع لملـوك الفونـج، أمّـا الجـزء الشـمالي حتـى الشـلال الثالـث فيتبـع لإدارة مشـيخة قـرى تحـت سـيادة ملـوك الفونـج، وتضـم المملكـة عـدة مشـيخات لمختلـف الأعـراق والإثنيـات. وقـد بلغت هـذه السـلطنة أوج مجدهـا في عهـد السـلطان، " بـادي الثانـي أبـو دقـن " (١٠٥٢ – ١٠٨٨هـــ = ١٦٤٢ – ١٦٧٧م)، إذ امتـدت رقعتهـا مـن الشـلال الثالـث شـمالاً إلى النيل الأزرق جنوبـاً، ومـن البحـر الأحمـر شرقـاً إلى كردفـان غربـاً [٣٢٦] .

---

(٣٢٦) عبد الجليل، ١٩٩٢م: ٦٧.

هكـذا اتخـذت سـلطنة سـنار منـذ بدايتهـا مظهـراً إسـلامياً اسـتهلت حياتهـا بالإسـهام في نـشر الدعـوة الإسـلامية، وهـا مما سـاعد العمـاء شـيوخ الطـرق الصوفيـة للسـعي في نـشر الثقافـة الإسـلامية في أوسـاط السـودانيين عـلى مختلـف اتجاهاتهـم الفكريـة والسياسـية والاجتماعيـة [٣٢٧].

بـل إنهـم اسـتعانوا بالوسـائل السِّـلمية في نـشر الدعـوة، ويرجـع الفضـل في ذلـك لـرواد الدعـوة الذيـن وفـدوا مـن الحجـاز والمغـرب ومـصر والعـراق، هـذا إلى جانـب الدعـاة الوطنيـين الذيـن لهـم الفضـل الأكـبر في هـذا السـبيل. كمـا أن هنالـك دور آخر متعاظـم في تكويـن البنيـة الفكريـة والثقافيـة في سـلطنة سـنار ألا وهـو دور الحجـاج السـودانيين الذيـن يذهبـون لـلأراضي المقدسـة لقضـاء شـعيرة الحـج حيـث يلتقـون بالعلمـاء فينقلـون الصـورة الحيـة للثقافـة الإسـلامية، وعندمـا يعـودون إلى ديارهـم يشـكلون رسـلاً لأهاليهـم، لأنهـم يحملـون شـعاع المعرفـة بالديـن والتديـن، أيضـاً لا ننـسى دور طـلاب العلـم الذيـن يذهبـون إلى الأزهـر الشريـف فعندمـا يعـودون إلى بلادهـم ينـشرون الإسـلام وثقافتـه.

وعـلى هـذا المنـوال ظهـرت مجموعـة مـن الفقهـاء ؛ عملـوا في حقـل الدعـوة إلى الإسـلام منـذ أوائـل القـرن السـادس عـشر الميـلادي، أشـهرها محمـد الجعـلي الـذي انتقـل إلى جبـال النوبـة، وتـزوج أمـيرة مـن البيـت الحاكـم هنـاك، وقـد انتقـل الحكـم مـن بعـده إلى ابنـه المسـمّى " قيـلي أبـو جريـدة ". وقـد أسّـس هـذا الابـن أول أسرة إسـلامية حاكمـة في جبـال النوبـة في عـام (٩٢٦هــ = ١٥٢٠م) عرفـت باسـم مملكـة تقـلي، بـل كان لسـلطنة سـنار علاقـات تواصـل واتصـال بسـلاطين الفـور. هـذا بجانـب اتصالهـم بالعالـم الخارجـي كالأتـراك واليمنيـين [٣٢٨] ؛ وهـذا ممـا يـدل عـلى عمـق الثقافـة الإسـلامية التـي تغلغلـت في ربـوع السـلطنة منـذ وقـت مبكـر. وقـد ظهـرت هـذه الـروح الإسـلامية في معاملتهـم الحسـنة لرجـال العلـم، وفي احترامهـم وإحاطتهـم لهـم بالرعايـة والتكريـم، فرحـل إليهـم كثـير مـن علمـاء المناطـق النائيـة، وعاشـوا في جوارهـم، ممـا كان لـه أثـر كبـير عـلى مسـيرة الإسـلام في هـذه السـلطنة.

(٣٢٧) محي الدين، ١٩٧٢م، ٥٦.

(٣٢٨) الحاج، ٢٠٠٤م: ٥٤.

هويتنا الثقافية:

إذا كان المشروع التعددي يطرح نفسه كضمان للوحدة " ضد الإنفصال "، ويدعو إلى تنمية الثقافات المحلية، فإنه يتجاهل حقيقة أساسية، وهي أن الثقافة الإسلامية ظلت تمثل الصبغة الشرعية للهوية السودانية، والقاسم المشترك بين الكيانات العرقية طوال قرون عدة. أما تنمية التعدد الثقافي والعرقي ؛ فلا تعدو ان تكون مجرد إرضاء لأهواء ساذجة لنخب سياسة لا تعبر عن حقائق، بل من الوهم تصور أن ذلك يمكن أن يكون ضماناً للوحدة ؛ فهو ببساطة تعميق للفوارق وتعزيز للاعتداد بالكيانات الصغيرة، آخذين في الاعتبار أن التركيبة السكانية في السودان في غالبها الأعم أقرب إلى البداوة من التحضر، ولو فرضنا جدلاً أن ثمة تمازجاً قد حصل لتلك الثقافات في ظل التنوع المعبر عنه سياسياً وإعلامياً ؛ فإن ذلك سيتمخض عن نتيجتين:

١. أن تمتزج هذه الثقافات وتنتج نسيجاً جديداً، وهو في هذه الحالة سيكون منكراً ومتنافراً يحمل عوامل الفناء في داخله ؛ فهي عملية عشوائية لا تقوم على معايير منضبطة.

٢. أن تفرض ثقافة ما وجودها وهيمنتها بوصفها الاقوى والاكمل – إذ عن الطبيعة الاجتماعية تؤيد ذلك – وهو عين ما قامت به الثقافة الإسلامية حينما زاحمت الثقافات المحلية، فإن قربها للفطرة أعطاها هذا الوضع.

إن الفوارق العرقية الثقافية لم تكن يوماً ما عامل وحدة، بل ظلت على الدوام عامل شتات. وبالمقابل فإن الإسلام بشريعته هو الثقافة الوحيدة التي ظلت تتمتع بالقدرة على صنع الوحدة والتجانس في أشد حالات التنوع تشابكاً. قال الله – عز وجل وعلا: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣)، وقوله سبحانه و تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(آل عمران: ١٠٣) ؛ ففي تاريخ الدولة الإسلامية استطاع الإسلام أن يجمع أجناساً وأعراقاً شتى وأصحاب ثقافات مختلفة، عرباً

وفرسـاً وهنـوداً وأرمـن وصقالبـة وبربـر وإفريقيـين وقبطـاً، لقـرون عديـدة انحدرت كلهـا في إطـار الثقافـة الواحـدة المهيمنـة، وحتـى في السـودان نجـد الآتـي:

- اتحـاد العبـدلاب والفونـج الـذي صنـع الدولـة التـي وحـدت معظـم أجـزاء السـودان كان بعـد حـرب، ولكـن الإسـلام وحـد بينهـم.
- تجربـة الزبـير باشـا الـذي اسـس دولـة إسـلامية في قلـب الجنـوب الأكثـر تشـابكاً واختلافـاً مـن ناحيـة التعـدد الثقـافي والعرقـي.
- المهديـة (الثـورة والدولـة) التـي اسـتطاعت ان تجمـع كل السـودانيين في منظومتهـا عـلى اختـلاف أعراقهـم، بـل وامتـدت حتـى جبـل الرجـاف في عمـق الجنـوب.

لقـد أدرك المسـتعمرون الأوربيـون هـذه الحقائـق، فملـوا عـلى المناطـق المقفولـة، وبتعميـق الشـعور القبـلي في الشـمال (سياسـة فـرق تسـد) حينمـا اسـتخدموا أسـلوب الغـدارة الأهليـة، وقـد أدرك واسـتوعبوها، فكانـت رؤيتهـم لحـل مشـكلة الجنـوب هـي نـشر الثقافـة الإسـلامية فيـه [٣٢٩].

ونلخـص مما سـبق إلى ان الصلات والعلاقـات كانـت قائمـة بـين شـبه الجزيـرة العربيـة والسـودان، وان اجـزاء كثـيرة مـن سـودان وادي النيـل قـد تأثـرت بمـا يحـدث بشـبه جزيـرة العـرب بفضـل الانتقـال والاسـتقرار السـلمي للعـرب في أرض السـودان. ومـن ثـم لـم يكـن مسـتغرباً ان تجـد الدعـوة الإسـلامية في شرق أفريقيـا " الحبشـة " الملاصقـة للسـودان ملجأهـا الاول بالإضافـة إلى سرعـة انتشـار الإسـلام في اجـزاء كثـيرة مـن أفريقيـا في سـنوات الإسـلام الأولى ممـا يدفعـه دليـلاً عـلى عمـق وقـدم الصـلات والوشـائج والارتبـاط بـين شـبه الجزيـرة العربيـة ومناطـق شرق السـودان.

(٣٢٩) مجلـة البيـان، العـدد: ٢٠٣، السـنة التاسـع عـشرة، رجـب ٥٢٤١هــ / أغسـطس / سـبتمبر ٤٠٠٢م، التبايـن الاثنـي والثقـافي في السـودان واشـكالية الوحـدة، أحمـد محمـد أحمـد إسـماعيل، ص٢٨. بتـصرف.

المؤثرات الحضارية:

في منتصف القرن الرابع الميلادي دخلت النصرانية إلى السودان عن طريق الإرساليات البيزنطية، وما لبثت أن صارت هي الدين الرسمي لممالك النوبة الثلاث: " نوباطيا، المقرة وعلوة "، وانتشرت الكنائس فيها، وإن كان هناك من يرجح انها لم تكن ديناً شعبياً ن بل كانت دين النخبة ؛ بينما ظل عامة الشعب على معبوداتهم الوثنية. أما الشعوب التي كانت تقطن شرق النيل، وغلى الجنوب الغربي، فقد ظلت متمسكة بمعتقداتها القديمة [٣٣٠].

وقد تعرضت الممالك السودانية القديمة لمؤثرات حضارية عدة نتيجة لاتصالها بالعالم من حولها، فقد وفدت إليها تيارات حضارية مصرية ويونانية ورومانية وحبشية، أدلت بأثرها في العادات والتقاليد والطقوس وربما تسربت بقاياها حتى يومنا هذا [٣٣١].

ومن مؤثرات العادات والتقاليد على سبيل المثال مؤثر الشلوخ والزينة الذي تمثله العرب ودرجوا في محاكاته من باب تميزهم، فمثلا نجد الجعليين كان ما يميزهم حرف (H) الإنجليزي، بينما كان لقبيلة الشايقية شلوخها المميزة والشهيرة وهي: ثلاث شلوخ افقية، ولكل قبيلة ما يميزها من الشلوخ أصبح كوشم اصطلحوا عليه، يقولون أن العرب عندما دخلوا السودان رأوا أن يتميزوا عن غيرهم فاختاروا لأنفسهم علامات او شلوخ مميزة لهم عمن سواهم ولا سيما في وقت الحروب والغارات التي كانت تشنها بعض القبائل على بعضها وكذلك كان الحال إذ نجد الشلوخ (الوشم القبلي) هنا على هيئة ثلاثة خطوط رأسية مطارق على الخدين يستعملها البرتا والجبلاويين وبعض الهمج وكما نجدها عند (نوبا كادقلي – كذلك نجد الوطاويط يحملون سمات نفس الشلوخ التي تحملها القبائل العربية التي ينتمون إليها.

على الرغم من أن الإسلام قد غيَّر الخريطة الديمغرافية والثقافية في السودان، وأنشأ مجمل العادات والتقاليد لدى القبائل المحلية المستعربة على حد سواء،

(٣٣٠) يوسف فضل حسن، سلطنة الفونج الإسلامية، ويحيل غلى كتابه: دراسات في تاريخ السودان، ج١، الخرطوم ٥٧٩١م، ص٢١ – ٨١.

(٣٣١) نفس المصدر السابق.

إلا أن قـدراً لا يسـتهان بـه مـن العـادات والتقاليـد كان بعيـداً كل البعـد عـن الأصـول الإسـلامية، بعضهـا تـسرب مـن الوثنيـات القديمـة كبعـض العـادات المرتبطـة بالـزواج والميـلاد والختـان والنفـاس... إلـخ.

الخاتمة

ان الصلات والعلاقات بين شبه جزيرة العرب وسودان وادي النيل عميقة الجذور موغلة في القدم فبعيداً عن النظريات التي تقول بغياب الحاجز المائي (البحر الأحمر) وبوحدة اصل سكان المنطقتين منذ فجر التاريخ واعتبارهم منطقة واحدة، فقد تأثرت أجزاء كبيرة من سودان وادي النيل عبر عصور التاريخ وقبل إعلان الإسلام بما يحدث بشبه جزيرة العرب بحكم الجوار وسهولة الاتصال، وبفضل الانتقال والاستقرار السلمي للعرب الذين انتقلوا بعقائدهم ثقافتهم إليها، وأصبحت تلك المناطق شبه عربية قبل ظهور الإسلام في جزيرة العرب.

ثم ازدادت وتطورت الصلات والعلاقات بينهما بفضل قوة الدعوة الإسلامية التي نهضت في جزيرة العرب منذ القرن السابع الميلادي ونفذت غلى سودان وادي النيل عبر عدة قرون من خلال انتقال كثير من القبائل العربية وبطونها واستيطانها مناطق واسعة من السودان، بالإضافة غلى محاولات القوى الإسلامية المستمرة لمد نفوذها وسيطرتها على تلك المناطق، وتمثل ذلك في نشر العقيدة الإسلامية وما صاحبها ونتج عنها من أفكار.

وبقيام سلطنات إسلامية في سودانٍ وادي النيل منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي كان طبيعياً أن يصحبها محاولاتٍ من حكام تلك السلطنات وعلى رأسهم سلاطين دولة " الفونج" لتوطيد وتوثيق علاقاتهم مع دول العالم الإسلامي وخاصة "الحجاز" باعتباره مهبط الوحي ومنبع الدعوة ومكان الحرمين، وخاصة في النواحي الدينية والثقافية لتبدأ حركة علمية تقوم بشرح تفاصيل الدعوة الإسلامية ومبادئها للناس لنهيهم عما يتعارض من عاداتهم ومعتقداتهم مع الإسلام والعقيدة الصحيحة، وتميز توطيد وتوثيق الصلات الثقافية بين المنطقتين برحيل علماء السودان للحج والمجاورة والعلم والتجارة ثم العودة لنشر الثقافة الإسلامية بين السودانيين من خلال تأسيس الخلاوي والمساجد والمدارس الدينية، وبالإضافة إلى بعض الشيوخ الذين حضروا من الحجاز إلى السودان لنشر مبادئ الشريعة الإسلامية، وكان لهذا أثره المباشر

في انتقـال الثقافـة الإسـلامية التـي تميـز بهـا الحجـاز في هـذا العـصر، وانتشـار الإسـلام في المجتمـع السـوداني.

وقـد كان معظـم العلمـاء الذيـن أرسـو قواعـد الشريعـة الإسـلامية في السـودان (طوال حكـم الفونـج) مـن العلمـاء الذيـن لهـم نزعـة إسـلامية وغلبـت عليهـم جميعـاً الـروح السـنية، ممـا جعلهـم قريبـين مـن الإسـلام الصحيـح بانتهاجهـم الشريعـة الإسـلامية القائمـة عـلى الالتـزام بالكتـاب والسـنة واقـوال وأفعـال السـلف الصالـح. وفي تلـك الأثنـاء التـي سـيطرت فيهـا الثقافـة الإسـلامية عـلى الحجـاز والسـودان عـلى حـداً سـواء وتميـزت بالارتبـاط الثقـافي الوثيـق بينهمـا، وتأثـر السـودان الثقـافي بمـا يحـدث بشـبه جزيـرة العـرب وخاصـة الحجـاز مـن مؤثـرات.

التباين وإشكالية الوحدة:

ان مـن اهميـة هـذا الموضـوع مـا يمككننـا ان نتعـدى بـه احداثـه المكانيـة و ظرفـه التاريخـي غـلى واقعنـا الـذي نعيشـه الان.

وذلـك ان المـشروع التعـددي الـذي يطـرح نفسـه الان كضمـان للوحـدة «ضـد الانفصـال»، ويدعـو إلى تنميـة الثقافـات المحليـة، فإنـه يتجاهـل حقيقـة أساسـية، وهـي أن الثقافـة الإسـلامية ظلـت هـي الصبغـة الشرعيـة للهويـة السـودانية، والقاسـم المشـترك بـين الكيانـات العرقيـة طـوال قـرون عـدة.

أمـا تنميـة التعـدد الثقـافي والعرقـي؛ فـلا تعـدو أن تكـون مجـرد إرضـاء لأهـواء سـاذجة لنخـب سياسـية لا تعـبر عـن حقائـق، بـل تنطلـق مـن وهـم في التصـور بـأن ذلـك يمكـن أن يكـون ضمانـاً للوحـدة؛ فهـو ببسـاطة تعميـق للفـوارق وتعزيـز للاعتـداد بالكيانـات الصغـيرة، آخذيـن في الاعتبـار أن التركيبـة السـكانية في السـودان في غالبهـا الأعـم أقـرب إلى البـداوة مـن التحـضر، ولـو فرضنـا جـدلاً أن ثمـة تمازجـاً قـد حصـل لتلـك الثقافـات في ظـل التنـوع المعـبر عنـه سياسـياً وإعلاميـاً؛ فـإن ذلـك سـيتمخض عـن نتيجتـين:

١. أن تمتـزج هـذه الثقافـات وتنتـج نسـيجاً جديـداً، وهـو في هـذه الحالـة سـيكون منكـراً ومتنافـراً يحمـل عوامـل الفنـاء في داخلـه؛ فهـي عمليـة عشـوائية لا تقـوم عـلى معايـير منضبطـة.

٢. أن تفرض ثقافة ما وجودها وهيمنتها بوصفها الأقوى والأكمل ـ إذ إن الطبيعة الاجتماعية تؤيد ذلك ـ وهو عين ما قامت به الثقافة الإسلامية حينما زاحمت الثقافات المحلية، فإن قربها للفطرة أعطاها هذا الوضع.

إن الفوارق العرقية الثقافية لم تكن يوماً ما عامل وحدة، بل ظلت على الدوام عامل شتات. وبالمقابل فإن الإسلام هو الثقافة الوحيدة التي ظلت تتمتع بالقدرة على صنع الوحدة والتجانس في أشد حالات التنوع تشابكاً. قال الله ـ عز وجل: {فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: ١٠٣] ؛ ففي تاريخ الدولة الإسلامية استطاع الإسلام أن يجمع أجناساً وأعراقاً شتى وأصحاب ثقافات مختلفة، عرباً وفرساً وهنوداً وأرمن وصقالبة وبربر وإفريقيين وقبطاً، لقرون عديدة انحدرت كلها في إطار الثقافة الواحدة المهيمنة، وحتى في السودان نجد الآتي:

` اتحاد العبدلاب والفونج الذي صنع الدولة التي وحدت معظم أجزاء السودان كان بعد حرب، ولكن الإسلام وحد بينهم.

` تجربة الزبير باشا الذي أسس دولة إسلامية في قلب الجنوب الأكثر تشابكاً واختلافاً من ناحية التعدد الثقافي والعرقي.

` المهدية (الثورة والدولة) التي استطاعت أن تجمع كل السودانيين في منظومتها على اختلاف أعراقهم، بل وامتدت حتى جبل الرجاف في عمق الجنوب.

لقد أدرك المستعمرون الأوربيون هذه الحقائق، فعملوا على تعويقها بسياسة الفصل العرقي للجنوب عن الشمال بقوانين المناطق المقفولة، وبتعميق الشعور القبلي في الشمال (سياسة فرق تسد) حينما استخدموا أسلوب الإدارة الأهلية، وقد أدرك رواد الحركة الوطنية الأوائل في مؤتمر الخريجين هذه الحقيقة واستوعبوها، فكانت رؤيتهم لحل مشكلة الجنوب هي نشر الثقافة الإسلامية فيه.

ولهذا فإننا نطرح (الثقافة الإسلامية) كمشروع وحيد وأصيل للوحدة وليس العكس [٣٣٢].

(٣٣٢) انظر: التباين الاثني والثقافي في السودان وإشكالية الوحدة، أحمد محمد إسماعيل.

النتائج

من خلال الوقوف على البحث يمكننا أن نتحصل على النتائج التالية:

١. الدولــة الســنارية هــي التــي أصلــت وأســلمت المــوروث الوثنــي والمسـيحي في جميــع أنماطــه الســلوكية والطقســية والدينيــة مــن لبــس وعــادات وتقاليــد وغيرهــا.

٢. تمثــل الدولــة الســنارية الفــترة الانتقاليــة بــين عصــور مــا قبــل الإســلام والإسـلام فلذلــك لــم يتــم التخلــص الكامــل مــن المــوروث الوثنــي والمسـيحي في فــترة حكمهــا.. ولهــذا لــم تترســخ القيــم الإســلامية والأحــكام الشرعيــة في الدولــة الســنارية بالصــورة المثــلى.

٣. لقــد ســاير الفقهــاء المتصوفــة في الدولــة الســنارية المــوروث الوثنــي والعــادات والتقاليــد الســابقة ولــم يتخلصــوا منهــا بصــورة مبــاشرة ولكنهــم تخلصــوا منهــا تدريجيــاً بــل وتــم اســتخدام بعضهــا التــي مــن الأعــراف الحميــدة في جلــب الاتبــاع وتجيــب الإســلام للوثنيــين.

٤. مــن فضــل اللــه تعــالى وأسراره رحمتــه ان هيــأة للدعــوة في الدولــة الســنارية رجــالا مــن الدعــاة عرفــوا أفضــل المداخــل وأحســن الأســاليب في الدعــوة فنــشروا الإســلام ورســخوا العقيــدة بأســلوب ســهل متســامح متبعــين ســبيل التــدرج.

٥. مــن التقاليــد العــادات الســنارية الراســخة هــي إكــرام الضيــف وإفــراد نــزل خــارج المنــازل. والســكنى بالقريــة او الحلــة ليكــون مثابــة للضيــف ومكانــاً للقــرى والإكــرام يقــوم عليــه كل أهــل القريــة بأســلوب تشــاركي.

٦. لا زالــت الرســوم الملوكيــة في تنصيــب الملــك أو الســلطان او كبــير القبيلــة او شــيخ الطريقــة الصوفيــة تتبــع نفــس الأســلوب الفونجــي مــن الجلــوس عــلى السريــر الصغــير وحمــل العصــا وبعــض الطقــوس المصاحبــة الأخــرى.

٧. في رايـي أن أسـاليب القتـل الطقـسي قـد تقلصـت إلى أقـل حدودهـا إيلامـاً – بعـد القتـل الطقـسي المبـاشر – فتحـول للجلـد المتمثـل في البطـان والجلـد بالسـوط كمـا نـراه في اعيـاد الجعليـين وغيرهـم وكمـا نشـهده في جـرح الشـبال في بعـض العـادات القبليـة لبعـض القبائـل التي تمارسـه حتـى الآن. بـل وفي بعـض القبائل نجد بعض الأشخاص يقومون بجرح أنفسهم مباشرة بالسكين.

المصادر و المراجع

أولا: القرآن الكريم:

١. المصحف الشريف.

٢. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي: الطبعة الثامنة، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨٨.

ثانيا: كتب التفسير:

٣. جامع البيان عن تأويل أي قرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٤. جامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٥. التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب: محمد بن عمر بن الحسن الشهير بالفخر الرازي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٥م.

٦. تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي، الطبعة السابعة، دار الأندلسي للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٧. روح العاني في تفسير القرآن الكريم و السبع المثانى: أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان (بدون تاريخ)

٨. تفسير المراغي: لأحمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى الحلبي البابي وأولاده، الطبعة الرابعة، القاهرة عام ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

٩. تفسير النسفي: أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، الطبعة الأولى، مطبعة محمد على صبيح ١٩٦٦م.

١٠. تفسير الجلاجين: العلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلى والعلامة جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، الطبعة الخامسة، دار المعرفة، بيروت لبنان، ١٩٩٢م.

١١. في ظلال القرآن: سيد قطب، الطبعة السادسة عشر، ١٩٩٠م، دار الشروق القاهرة.

ثالثاً: الحديث الشريف:

١٢. موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف: أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول الطبعة الأولى، عالم التراث للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

١٣. صحيح البخاري: الإمام أحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت (بدون تاريخ).

١٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن باز وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر بيروت، لبنان (بدون تاريخ).

١٥. الجامع الصحيح (صحيح مسلم): الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (بدون تاريخ).

١٦. سنن الترمذي: الحافظ محمد بن عيسى بن سورة، تعليق عزت عبيد الدعاش، الطبعة الأولى، دار الدعوة، حمص، سوريا، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

١٧. الموطأ: الإمام مالك بن أنس، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر بيروت.

١٨. صحيح مسلم بشرح النووي: الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن

ورد القشـيري النسـابوري، شرح أبـو زكريـا يحـي بـن شرف النـووي الدمشـقي، طبعــة جديــدة منقحــة، الطبعــة الأولى، دار الكتــب العلميــة، بــيروت، لبنــان، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠.

١٩. السـنن الكـبرى: أبـي عبـد الرحمـن أحمـد بـن شـعيب النسـائي، تحقيـق دكتـور عبـد الغفـار سـليمان البنـداوي، وسـيد كـسروي حسـن، الطبعـة الأولى، دار الحديـث للطباعـة والنـشر والتوزيـع، بـيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٦١م.

٢٠. سـنن أبـي داوود: الحافـظ أبـو داوود سـليمان بـن الأشـعث السجسـتاني الازدي، إعـداد عـزت عبيـد الدعـاش، عـادل السـيد، الطبعـة الأولى، دار الحديـث للطباعـة والنـشر والتوزيـع، بـيروت، لبنـان، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

٢١. هـدى السـاري لـشرح صحيـح البخـاري: الطبعـة الأولى ـ مطبعـة مصطفـى البابـي الحلبـي، القاهـرة.

٢٢. السـنن الكـبرى: لأبـي بكـر البيهقـي وفي زيلـه كتـاب الجوهـر النقـي، لعـلاء الديـن أبـن عـلى التركمانـي، إعـداد نديـم المرعـشي، بـيروت.

٢٣. الإمام أحمد بن حنبل: دار الدعوة، استنابول (بدون تاريخ).

٢٤. ٢٧ـ مشـكاة المصابيـح: محمـد بـن عبـد اللـه الخطيـب العمـري التبريـذي، الطبعــة الأولى، المكتـب الإسـلامي، بـيروت، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٩١م.

٢٥. سـنن أبـن ماجـة: محمـد بـن القزوينـي: محمـد فـؤاد عبـد الباقـي، مطبعـة عيـسى البابـي الحلبـي، القاهـرة، (بـدون تاريـخ).

٢٦. منتخـب ريـاض الصالحـين: أبـو زكريـا محـي الديـن بـن شرف النـووي، مؤسســة الرســالة، الطبعــة الثانيــة، بــيروت، لبنــان، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٧. الأربعـين حديـث النوويـة: أبـو زكريـا يحـي بـن شرف النـووي، دار الثقافـة، قطـر (بـدون تاريـخ).

٢٨. شـعب الإيمـان: أبـي بكـر أحمـد بـن الحسـين البيهقـي، تحقيـق أبـو هاجـر

محمد السعيد، ابن بسيوني زغلول، الطبعة الأولى، دار المنار، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

رابعاً: كتاب اللغة:

٢٩. لسان العرب: لابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، لبنان (بدون تاريخ).
٣٠. المعجم الوسيط: بإشراف عبد السلام هارون، مجمع اللغة العربية، القاهرة.

كتب عن التصوف:

١. إبراهيم، عبد الرزاق (١٩٨٨): أضواء على الطرق الصوفية في القارة، ط١، القاهرة.

٢. أحمد، حسن عبد العزيز (٢٠٠٣): مدخل إلى الجغرافيا الحضارية، مكتبة الرشد، الرياض.

٣. أحمد، حاتم الصديق محمد، (بدون تاريخ): الممالك الإسلامية في السودان، دار جامعة السودان المفتوحة للطباعة، جامعة الزعيم الأزهري.

٤. ٤/ البادي، صديق محمد أحمد (بدون تاريخ): معالم وأعلام، دار الثقافة للطباعة والنشر، الخرطوم.

٥. التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي (١٩٧٩): المدخل إلى التصوف الإسلامي، الطبعة الثالثة، دار الثقافة للنشر القاهرة.

٦. الجيلي، عبد القادر(١٩٧٠): نفحة الرياض البواسم في مناقب الشيخ عبد المحمود، القاهرة.

٧. الحفيان، عبد الجبار المبارك (٢٠٠٤): الأستاذ الشيخ عبد المحمود الشيخ نور الدائم حياته وآثاره، دار السداد للطباعة، الخرطوم.

٨. أبو سليم، محمد إبراهيم (١٩٦٩): المرشد إلى وثائق المهدي، دار الوثائق المركزية، الخرطوم.

٩. أبو سليم، إبراهيم (١٩٩٢): بحوث في تاريخ السودان، دار الجيل، بيروت.

١٠. شاكر، محمود (١٩٨١): السودان، المكتب الإسلامي، بيروت.

١١. شقير، نعوم (١٩٨١): تاريخ السودان، (تحقيق وتقديم الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم)، دار الجيل، بيروت.

١٢. الصياد، السعودي، محمد محمود ومحمد عبد الغني (١٩٦٦): دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي في السودان، دار الرائد للطباعة والنشر، القاهرة.

١٣. ضيف، شوقي (١٩٩٥): عصر الدول والامارات (الجزائر، المغرب الاقصى، مورتيانيا، السودان)، دار المعارف، القاهرة.

١٤. عابدين، عبد المجيد (١٩٦٧): تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث، دار الطباعة للثقافة.

١٥. عبد المحمود، إيناس الشريف (٢٠٠٩): طابت عبد المحمود، مكتبة الأكاديمي للنشر والتوزيع، الخرطوم.

١٦. مبارك، زكي (١٩٣٨): التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، القاهرة.

١٧. نور الدائم، عبد المحمود (١٩٥٩): الكؤوس المترعة في مناقب السادة الأربعة، القاهرة، دار الزيني للطباعة والنشر.

١٨. نور الدائم، عبد المحمود (١٩٩٧): أزاهير الرياض، مكتبة القاهرة الصندقية ميدان الأزهر الشريف، القاهرة، مصر.

١٩. نور الدائم، عبد المحمود (٢٠٠٧): المناقب الصغرى لسيدي الشيخ أحمد الطيب، المجلس القومي للذكر والذاكرين الأمانة العامة، الطبعة السابعة، دمشق.

٢٠. أحمد بن الحاج علي: مخطوطة الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل، وزارة الإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦١م.

٢١. ب.م هولت: الأولياء والصالحون والإسلام في السودان، ترجمة هنري رياض والجنيد على عمر، بيروت ١٩٨٦م.

٢٢. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٢٣. حسن الفاتح قريب الله: التصوف في السودان إلى نهاية عهد دولة الفونج، مطبوعات كلية الدارسات العليا، جامعة الخرطوم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٢٤. السر سيد أحمد العراقي: سواكن في العصر العثماني ١٥٢٠ – ١٩٢٣م، كتاب الخرطوم رقم ٧٨، ٢٠١٤م.

٢٥. صلاح محي الدين: الشيخ عجيب المانجلك والدولة السنارية في سنار، دار مكتبة الهلال، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥م.

٢٦. الطيب محمد الطيب: المسيد، دار جامعة الخرطوم للنش، ١٩٩١م.

٢٧. عبد السلام سيد أحمد: الفقهاء والسلطنة في سنار ١٥٠٠ – ١٨٢١، براغ، ١٩٩١م.

٢٨. عبد العزيز عبد المجيد أمين: التربية في السودان والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها، كنوز للنشر، القاهرة، ٢٠١٤م.

٢٩. قيصر موسى الزين: فترة انتشار الإسلام والسلطنات (٦٤١ – ١٨٢١م)، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية.

٣٠. محمد النور بن ضيف الله: كتاب الطبقات بخصوص الأولياء والصالحين، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٨٣م، الطبعة الثالثة.

٣١. محمد بن عمر التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، خليل عساكر ومصطفى محمد مسعد، المؤسسة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣م.

٣٢. محمد صالح محي الدين: مشيخة العبدلاب وأثرها في تاريخ السودان السياسي، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٧٢م.

٣٣. محمد فوزي مصطفى: الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٧٢م.

٣٤. مكتبة الثقافة الإسلامية: الإسلام في السودان، وزارة الشئون الدينية والأوقاف جمهورية السودان، ١٩٧٦م.

٣٥. نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، ٢٠٠٧م.

٣٦. يحي العوض: أصحاب الوقت: أشراف السودان رجالاً ومقامات قراءة معاصرة، بدون معلومات للنشر.

٣٧. يحيى محمد إبراهيم: تاريخ التعليم الديني في السودان، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧م.

٣٨. يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان وأفريقيا وبلاد المغرب، دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٨٢م.

المؤتمرات والأوراق العلمية:

١. أميرة أحمد رحمة الله: دور الممالك الإسلامية في نشر الإسلام: مملكة الفونج نموذجاً، مؤتمر سنار: المدينة – الدولة – الحضارة، جامعة النيلين من ٣١/٥ – ١/٦/٢٠١٦م.

٢. اميرة أحمد رحمة الله: دور العلماء في نشر الإسلام (سنار نموذجاً)، مؤتمر نظم الحكم والإدارة في الدولة السنارية، جامعة الجزيرة، ٢-٤ / أغسطس ٢٠١٧م

٣. السير سيد احمد العراقي: أثر الإسلام في الحياة الروحية والثقافية والاجتماعية في مملكة سنار ١٥٠٥- ١٨٢١م، مؤتمر سنار: المدينة – الدولة – الحضارة، جامعة، جامعة النيلين من ٣١/٥ – ١/٦/٢٠١٦م.

٤. سلوى التجاني: المؤثرات الثقافية الدينية في مملكة سنار، مؤتمر التجربة السنارية وبناء الدولة الحديثة في السودان، جامعة الزعيم الأزهري، معهد الدراسات السودانية والدولية، ١٤ مارس ٢٠١٧م.

٥. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: العلاقات الاقتصادية بين مصر والسودان، المؤتمر العالمي لدول حوض النيل، إستمرارية التغيير، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، ١٩٨٢م.

٦. الفاتح بشير الوسيلة: إنتشار الإسلام في مملكة الفونج ودوه في تعزيز علاقاتها الخارجية، مؤتمر سنار: المدينة – الدولة – الحضارة، جامعة النيلين من ٥/٣١ – ٢٠١٦/٦/١م.

٧. فتح الرحمن الطاهر عثمان: الحركة الفكرية والتوجه الإسلامي في علاقات الفونج الخارجية، مؤتمر سنار: المدينة – الدولة – الحضارة، جامعة النيلين من ٥/٣١ – ٢٠١٦/٦/١م.

٨. فيصل محمد موسى: رحلة الشريف محمد المدني حمد الملقب بأبي خف للسودان، مؤتمر نظم الحكم والإدارة في الدولة السنارية، جامعة الجزيرة، من ٢-٤/ أغسطس ٢٠١٧م.

٩. محمد عبد الله موسى إبراهيم: جهود الخلوة السودانية في ترسيخ القيم الإسلامية (مملكة سنار نموذجاً)، مؤتمر سنار: المدينة – الدولة – الحضارة، جامعة النيلين من ٥/٣١ – ٢٠١٦/٦/١م.

١٠. مهند فاروق محمد أحمد: التصوف والمتصوفة ودورهم الاجتماعي في الفونج، مؤتمر سنار: المدينة – الدولة – الحضارة، جامعة النيلين من ٥/٣١ – ٢٠١٦/٦/١م.

١١. يوسف فضل حسن: العلماء المسلمون في سلطنة الفونج بسودان وادي النيل، ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم ٢٨ – ٣٠ يوليو ١٩٨٣م.

الرسائل الجامعية:

١. طـارق أحمـد عثمـان: الطريقـة السـمانية وأثرهـا الدينـي والاجتماعـي في السـودان (١٧٦٦ – ١٩٥٥م) دكتـوراه غـير منشـورة، جامعـة إفريقيـا العالميـة، الخرطـوم، ٢٠٠٠م.

٢. فتـح الرحمـن الطاهـر عبـد الرحمـن حمـد: علاقـات السـودان السياسـية والثقافيـة مـع شـمال إفريقيـا (١٩٥٨/ ١٩٨٥م)، دكتـوراه غـير منشـورة،جامعة الخرطـوم، ٢٠١١م.

٣. المعتصـم أحمـد الحـاج: الخلـوة في منطقـة الرباطـاب، ماجسـتير غـير منشـورة، معهـد الدراسـات الأفريقيـة والآسـيوية، الخرطـوم، ١٩٨٣م.

المجلات والدوريات:

يوسـف فضـل حسـن: سـلطنة الفونـج ودورهـا في تاريـخ وادي النيـل، مجلـة دراسـات إفريقيـة، عـدد رقـم ٢٢.



حيدر محمد سليمان

بريدالكتروني: hydermanaseer93@gmail.com

مكان وتاريخ الميلاد: ولاية نهر النيل، المناصير، 1964م، «محلية البحيرة».

نال درجة الأستاذية «بروفسور» مارس عام 2014م.

عضو المجلس الوطني، دائرة أبو حمد ولاية نهر النيل (2001-2005م).

نائب رئيس لجنة الثقافة والإعلام والسياحة.

تولى عدد من الوظائف العلمية والإدارية بجامعة أم درمان الإسلامية.

أشرف وشارك في تقييم جملة من البحوث والرسائل الجامعية في الماجستير والدكتوراه بعدد من الجامعات السودانية والعربية.

قيم بحوث أعضاء هيئات تدريس بعدد من الجامعات العربية والسودانية للترقي لدرجة الأستاذ المشارك ودرجة الأستاذية.

حكّم (23 بحثاً) لموسوعة التفسير الموضوعي: «جامعة محمد بن سعود» المملكة العربية السعودية.

له 52 من البحوث المنشورة بعدد من المجلات المحكمة داخل وخارج السودان.

شارك في 8 ملتقيات خارج السودان.

مستشار لعدد من المجلات العلمية المحكمة خارج السودان.

عضو مجلس أمناء الجامعة العربية الفرنسية بمالي – بوماكو.

عضو هيئة علماء السودان.

عضو الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكتب السودان.

له عدد من المؤلفات تحت الطبع.



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution